حجاج مادة " الذوق " في الخطاب القرآني

إعداد

د / سحر فتحي حجازي

مدرس البلاغة والنقد

كلية الآداب ـ جامعة حلوان

مقدمه :

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما تفتأ الدراسات الحديثة تقاربه، تنقب عن وجوه إعجازه فما تنثني عنه إلا و قد أخرجت من دفائنه المخبوءة، ونفائسه الممنوعة، ما يزيد رواءه و يجلو خفياته، و يثبت له عظمة الحرف قبل الكلمة، و الكلمة قبل التركيب.

وتنطلق هذه الدراسة من زاوية محددة، و هي الوقوف على قرائن الدقة البالغة في النظم القرآني، و ذلك حيث تكمن إعجازية القرآن في نظمه الذي يهدف إلى مخاطبة عقول البشر و إقناعهم بحقيقة الألوهية، ثم البناء عليها بطاعة ما أمرهم به من أوامر، و الانتهاء عما نهاهم عنه من نواه .

ويدرج البحث في سياق الكشف عن بنية الحجاج في الخطاب القرآني، و ذلك وفقا لما اعترى معنى "الحجة " من التوسع، لتغدو غير قاصرة على الإثبات أو البرهان، بل تتعدى ذلك إلى الدلالة على مجموع قول القائل، مبتدرا ومجيبا، إذ تتجرد الأقوال لسلوك وجهة استدلالية، حيث تحدد إمكانيات التتابع الحجاجي من خلال عمل لغوي مخصوص، يعتمد ظاهر الكلام و ضمنيه . و ذلك حيث يعتمد الخطاب القرآني تقنيات لغوية خاصة في صوغه للحجج، مستثمرا طاقات اللغة بكل تجلياتها و أشكالها وعلومها، و حيث جعل التميز الخطابي و الخصوصية الجوهرية من النص القرآني خطابا حجاجيا يقصد بالدرجة الأولى إلى الاستمالة و التأثير و الإقناع

نلج إلى عالم الخطاب القرآني الموسوم ببلاغته الحجاجية، من خلال انتخاب مادة (الذوق) نموذجا تطبيقيا، نقوم بدراسة وجوه الحجاج من خلاله عبر مستوى تتواشج فيه البنى و المعاني، حيث تتألف الدراسة من مهاد تأسيسي يحتوي وقفات ثلاث و هي :

١. مادة الذوق في القرآن الكريم.
٢. الحجاج.
٣. الخطاب.

تعقبه دراسة تطبيقية ذات مستويات ثلاثة ، و هي :

المستوي اللغوي .
المستوى التصويري .
المستوى الإيقاعي.

المهاد التأسيسي

مادة (الذوق) في القرآن الكريم

" الذوق : مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا وذواقا ومذاقا ... والمذاق طعم الشيء، والذوّاق : هو المأكول والمشروب ... وما ذقت ذواقا أي شيئا "[١]، وفي المقاييس" الذال والواو والقاف أصل واحد، وهو اختبار الشيء من جهة تطعم" [٢].

وقد أكثر العرب من استخدام مادة "الذوق " في باب المجاز، ففي المقاييس : " ثم يشتق منه مجازا فيقال : ذقت ما عند فلان أي اختبرته "[٣]، يقول ابن قتيبة " وأصل الذوق بالفم، ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار"[٤] .

وعلى ذلك وردت مادة" الذوق " في الخطاب القرآني في ثلاثة وستين موضعا في إطار الاستعارة، إلا قوله تعالى : " فلما ذاقا الشجرة بدت لهما

---

[١] لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور : ١١١/١٠ ، دار صادر بيروت ، ٢٠١٠ م.
[٢] معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس : ٣٦٤/٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠١ م.
[٣] معجم مقاييس اللغة : ٣٦٤/٢ .
[٤] تأويل مشكل القرآن ، أبو عبيدة بن مسلم بن قتيبة : ١٦٤، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، دار التراث ، ط٢ ، القاهرة .

سوآتهما "[الأعراف:٢٢]، وذلك حيث أكثر البيان القرآني من ذكر مادة (الذوق) في باب الوعيد بالعذاب، فأدخلها في باب الاستعارة تفضيلا لحسية المعنويات وتجسيما للعذاب، إذ تبعث حسية التذوق على التهويل، وتثير الحواس البشرية وتجعلها في درجة قصوى من استشعار معاناة المعذبين، يقول أبو هلال العسكرى في قوله تعالى : " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر" [السجدة:٢١]، "حقيقته لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ، لأن حس الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذوق فضل على غيره من الحواس، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئا لم يعرفه شمه، فإن عرفه، وإلا فذاقه لما يعلم أن للذوق فضلا في تبيين الأشياء"[١] .

وثمة ما يجعل مادة الذوق، أقوى من مجرد إدراك الطعم، ذلك أن " الفرق بين الذوق وإدراك الطعم، أن الذوق ملابسة يحس بها الطعم، وإدراك الطعم يتبين به، من ذلك الوجه، وغير تضمين ملابسة، وكذلك يقال " ذقته فلم أجد له طعما" [٢]، فالذوق ملابسة للأشياء وليس إدراك للطعوم وحسب، وهذا ما يبرر علاقة المصاحبة بين مادة (الذوق) والعذاب في الخطاب القرآنى .

وهذه المادة اختصت فيما يبدو – في جل مواضعها في البيان القرآني– بمقام المخالفات سواء أكان ذلك حال الحياة أو بعد الموت . فالكافرون الذين يقال لهم (ذوقوا مس سقر) مخالفون لشرائع ربهم . ومثلهم في الذوق من يخالف أمر ربه في كنزه المال وعدم إخراج زكاته (فذوقوا ما كنتم تكنزون)، ومن ذاق رحمة الله في مقام مخالفة إذ لم يشكر ربه في السراء، ولم يصبر

---

(١) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري : ٢٧٥ ، تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١، القاهرة.

(٢) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري : ٥٦٤ ، حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ م.

على الضراء، وآدم وزوجه ذاقا الشجرة مخالفة لأمر ربهما "ولا تقربا هذه الشجرة".

ففي هذه المادة معنى التهكم والسخرية، وهذا التهكم لاحق بالاستعارة، في أكثر مواضعها، و ذلك مما يبدو في مثل قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)، ذلك أن الجوع والخوف محيطان بهما إحاطة اللباس بلابسه وتكون فائدة الإذاقة حينئذ أنهم وجدوا طعمهما المر وأحسوه كما يحس المتذوق طعم ما ذاقه من مأكول أو مشروب . وفي هذا معنى التهكم حيث جعل طعامهم ولباسهم جوعا وخوفا، وأوقع عليهما الإذاقة"[١].

وعلى ذلك لم يذكر الذوق في بسط جمال الجنة، والتلذذ بمباهجها وشرابها وطعامها، مما يدل على أنه خصص للكافرين والعصاة والجبابرة، وهو يدل على مرتبة بهيمية، هي شأن أهل النار الذين يطعمون من العذاب لتملأ البطون" [٢].

و قد تعددت وجوه استعمال (مادة الذوق) في النص القرآني حسبما أوردت كتب الوجوه والنظائر، و يذكرصاحب (قاموس القرآن) من ذلك أوجها خمسة:

وجه منها : الذوق الإنالة ... ومنه قوله تعالى في سورة هود " ولئن أذقناه نعماء " ...

الثانى : الذوق الوجود ... نحو قوله تعالى في سورة الطلاق " فذاقت وبال أمرها " يعني ابتليت بعقوبتها ... ونحو قوله تعالى في سورة الذاريات " ذوقوا فتنتكم "، وقوله جلت قدرته في سورة الدخان " ذق إنك أنت العزيز الكريم" .

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني : ٤٠٤/٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٢م.

(٢) جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف:١٠٤(رسالة ماجستير) في الآداب ، دار المتنبي ، دمشق ، سورية ، ط٢ ، ١٩٩٩ م.

الثالث : ذاق بمعنى أكل ... " فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ".

الرابع : الذوق العذاب ... قوله تعالى في سورة النحل " فأذاقها الله لباس الجوع والخوف " أي عذبها الله تعالى . ومثلها في سورة السجدة "ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر".

الخامس : الذوق المعاينة ... قوله تعالى في سورة آل عمران " كل نفس ذائقة الموت " يعني معاينة الموت ..."[١].

ومن خلال تحري طبيعة المادة وما طرأ عليها من وجوه التطور والتغير عبر العهدين المكي والمدني نلاحظ أن أكثر ورود المادة[٢] في العهد المكي، نظرا لطبيعة السور المكية التي أكثرت من مواقف جدال المشركين للأنبياء وذكر الجنة والنار، والدعوة إلى التوحيد، وفضح أعمال الكفار، بما يتوافق مع مقامات ورود مادة (الذوق)، بينما قل ورود المادة في السور المدنية حيث غلب على تلك السور بيان الفرائض والحدود، وتفصيل قواعد الشرع وأحكامه وأهدافه، وكشف أساليب النفاق وبيان خطورة المنافقين على الدين .

١. **الحجـــاج**

في لسان العرب : " حاججته أحاجه حجاجا ومحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ... والحجة : البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري : الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ... إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد لأن القصد لها وإليها " [٣]. وفي

---

[١] قاموس القرآن ، الحسين بن محمد الدامغاني : ١٨٦-١٨٧، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل ، دار العلم للملايين ، بيروت ،ط٤ ، ١٩٨٣م .

[٢] وردت مادة " الذوق " سبعا وأربعين مرة في سور العهد المكي ، وست عشرة مرة في سور العهد المدني .

[٣] لسان العرب ، مادة (ح.ج.ج) : ٢٢٨ .

القاموس : الحجاج : الجدل"[١] فالحجاج على ذلك هو الجدل، بينما يعني مصطلح الجدال عند ابن خلدون " معرفة آداب المناظرة " [٢]، أي أن الجدل هو علم المناظرة .

وعندما أعيد تأسيس الدراسات الحجاجية في العصر الحديث، اختلف الحجاج عن السابق، فبارح ميدان المنطق البرهاني عند المناطقة، واختلف عن جدل القدماء وإن كان من صلة وصل بينهما فهو ما يتعلق بآداب البحث التي تعد جزءا من علم الحجاج اللساني الذي لا يختص فقط بالمناظرة "[٣]" بل يشمل كل كلام يهدف إلى التأثير في المتلقي سواء كان على سبيل المناظرة أم كان على غير سبيلها .

الحجاج علم يدرس أشكال ووسائل التأثير في المتلقي التي تتم في إطار النص اللغوي أو الإطار السيميائي العام بهدف الإقناع بفكرة ما،أو الدفاع عن فكرة ما، أو الهجوم على فكرة ما، للوصول إلى الإقناع أو الإفحام "[٤].

إن دراسة الحجاج، سعي إلى اكتشاف قواعد الخطاب الداخلية، التي تتحكم في مسارات الأقوال والجمل وتتابعها بشكل متنام متدرج، ليتمثل الحجاج في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب .

---

[١] القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (حجج) : ٢٣٤ ، بيروت ، ط٨ ،٢٠٠٥م.

[٢] الحجاج في الخطبة النبوية،جمعان عبد الكريم الغامدي : ٢٨٦، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ،عدد ١٠ ،مايو، ٢٠١٣م.

[٣] مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون :٥٠٦ ، بيروت ، دار الجيل .

[٤] منطق الكلام من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ، حمو النقاري : ٤٩٨ ، الرباط ، دارالأمان ،ط١،٢٠٠٥م .

٢. الخطـــاب

الخطب : سبب الأمر، تقـول مـا خطبـك . وخطبـت علـى المنبـر خطبـة . وخاطبه بـالكلام مخاطبـة وخطابـا ... وخطـب خطابـة : صـار خطيبـا "[١] . والخطب : الشأن أو الأمر، صـغر أو عظـم، والخطـاب والمخاطبـة : مراجعـة الكلام، وقد خاطبه بـالكلام مخاطبـة وخطابـا، وهمـا يتخاطبـان" [٢]، و" الخطـاب كل كلام بينك وبين آخر"[٣].

ويعرف الشريف الجرجاني الخطاب علـى أنـه قيـاس مركـب مـن مقـدمات ذات مقبولية تصدر من المرسل المعتقد فيه، والغـرض منهـا ترغيـب النـاس فيمـا ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ"[٤].

وقد تعاقبت مراحـل مفهـوم الخطـاب عنـد القـدماء حتـى تجـاوز علمـاؤهم مستوى المفهوم اللفظي والمفهوم الجملي للكـلام واهتمـوا بـالنص فتشـكلت بـذلك نواة دلالية خاصة بالخطاب في الثقافة العربية "[٥].

ويعرف بعض المحدثين الخطاب بكونه " رسـالة موجهـة مـن المنشـيء إلـى المتلقي، تستخدم فيها الشفرة اللغوية المشـتركة بينهمـا ويقتضـي ذلـك أن يكـون

---

[١] الصحاح(خطب)، الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار :١٢١/١،دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩٠م .

[٢] لسان العرب : ٩٧/٥-٩٨ ، دار صادر بيروت ، د.ت .

[٣] مجمل اللغة (خطب) ، ابن فارس :٢٩٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٦ م.

[٤] التعريفات ، على بن محمد الشريف الجرجاني : ٧٢ ، ط١ ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٥م.

[٥] تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث ، دراسة مقارنة في النظرية والمنهج ، مها محمود إبراهيم العتوم (أطروحة للدكتوراه)، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، ٢٠٠٤م.

كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية، والنحوية والدلالية التي تكون نظام اللغة (أي الشفرة) المشتركة، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية وتشكل علاقاته من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم"[١]، وعلى ذلك فإن الخطاب من حيث هو كلام يعني وجود متكلم ومخاطب، يعتمد دورا تأثيريا للمتكلم بصورة من الصور، حيث يشكل الملفوظ مع المقام الذي يحدث فيه التخاطب خطابا .

ويمكن اعتبار النص القرآني نصا خطابيا، انطلاقا من اقتضائه للتأثير والإقناع، ذلك أن الخطاب في أعم مفاهيمه، القول الذي يفترض وجود متكلم وسامع، مع توافر مقصد التأثير .

والخطاب القرآني ليس كمثله خطاب عربي آخر في نظم دواله وتأليف عباراته وارتباط بعضها ببعض، ودقة مدلولاته، وقد كثرت حوله الشروح وتعددت القراءات والتفاسير والرؤى ... ولكن ليس بالإمكان فهم الخطاب من خلال مستوى واحد كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو الدلالي أو المعجمي أو غيره ... ولكن يفهم الخطاب في إطاره الشمولي، وهذا الفهم لا يكون إلا لمن يملك أدوات التحليل يضاف إليها القراءة الصحيحة التي تؤدي إلى الفهم الصحيح، وهذا الفهم يكون في ضوء اللسانيات المنضبطة بضوابط المنهج العلمي الصحيح "[٢].

---

[١] الأسلوبية وتحليل الخطاب ، نور الدين السيد :١٦/٢ ، دار هومة للطباعة والنشر ، الجزائر ، د.ط ، ١٩٩٧م.

[٢] الخطاب القرآني في ضوء العلوم اللغوية ، إسماعيل مغمولي : ١٠ ، بحث منشور في مجلة الموقف الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد ٣٩٣ .

الدراسة التطبيقية

المستوى الأول

اللغـــــــة

تحمل اللغة بعدا حجاجيا فـي جميـع مسـتوياتها، فهـي عنـد ديكـرو وسـيلة سجالية في جوهرها، ومسرح لظهور المقتضى باعتباره شـكلا مـن أهـم الأشـكال الحجاجية الكامنة فيه، وليس المقتضى حـدثا بلاغيـا مرتبطـا بـالقول، وإنمـا هـو منغرس في اللغة نفسـها، وتكمـن وظيفـة اللغـة عنـد انسـكومبر و ديكـرو فـي "التوجيه" حتى إنهما حصرا دلالة الملفوظ في التوجيه الناتج عنه "[1].

ويبدو حجاج اللغة حيث يقوم المتكلم بتقـديم قـول (أو مجموعـة أقـوال يفضـي إلى التسليم بقول آخر (أو مجموعة أقـوال أخـرى)، حيـث يبنـى الخطـاب علـى تتابع القضايا تتابعا ضمنيا أو صريحا، في شـكل سلسـلة مـن الحلقـات الحجاجيـة الممكنة تكون في تتابعها ذاك، متأتية من بنيـة الأقـوال اللغويـة لا مـن مضـمون هذه الأقوال الإخباري"[2]

حيث إن إمكانيات التتابع الحجاجي تحدد مـن خـلال عمـل لغـوي مخصـوص هو عمل الحجاج، ومن ثمَّ تعـد اللغـة إجـراء لسـانيا يعتمـده المخاطـب لتعزيـز تواصله مع المتلقي، ليحقق التـأثير والاسـتمالة، ويغـدو السـياق الإطـار العـام الذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليـات مناسـبة لعمليـة الإقنـاع، فـإن اختيار الأدوات والآليات اللغوية يعد انعكاسا للعناصر التـي تشـكل فـي مجموعهـا

---

[1] على أن دلالة الكلام (وحتى الكلمة) ليست التوجيه وحسب ، وإنما التوجيه جزء من دلالة ذلك الكلام وبعض منه . فقد يكون لهذا الكلام بحسب المواقف التأويلية التي نقفها منه ، دلالات تتجاوز الحجاج والتوجيه وتفيض عنهما . وسنسمي نحن ذلك الجزء من دلالة الكلام (أو الكلمة) "الدلالة الحجاجية" أو " المعنى الحجاجي" أو " الطاقة الحجاجية " ...الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) ، عبد الله صولة : ٣٦ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٧ م.

[2] الحجاج في القرآن : ٣٤ .

سياقا معينا يبرز من خلال لغة الخطاب"[١]، حيث يوظف المرسل اللغة في مستوياتها المختلفة بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي يستخلص من الكلمة طاقاتها الخفية الفاعلة في السياق .

ينطلق حجاج المستوى اللغوي لمادة (الذوق) من خلال اعتماد الصيغة مصدرا حجاجيا، باعتبارها لونا من العدول النوعي يستدعيه السياق بهدف التأثير والإقناع .

حيث يمكن حصر صيغ مادة (الذوق) في ست رئيسة، هي : الماضي المجرد (ذاق)، و المضارع (يذوق)، والأمر (ذق)، و الماضي المزيد (أذاق)، والمضارع (يذيق)، و اسم الفاعل (ذائق).

الصيغة الأولى (ذاق)

وردت مادة " الذوق " بصيغة الماضي المجرد في مواضع خمسة من القرآن الكريم وهي الآيات من قوله تعالى :

(١) فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا [الأعراف:٢٢]

(٢) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا [الطلاق:٩]

(٣) كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ [الأنعام:١٤٨]

(٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ [الحشر:١٥]

(٥) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ [التغابن:٥]

ثلاث من هذه الآيات مدنية، وآيتان مكيتان . وقد تكرر نوع الذوق في الآيات المدنية (فذاقت وبال أمرها- ذاقوا وبال أمرهم- فذاقوا وبال أمرهم)، بينما غدا الذوق بأسا في سورة (الأنعام) المكية في سياق مجازي، و صار ذوقا للشجرة في سورة (الأعراف) في سياق حقيقي.

---

[١] استراتجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٧١ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٤ م.

وتستوقفنا صيغة " ذاقا " في قوله تعالى في سورة الأعراف : " ... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ "[من الآية:٢٢]، ومجيء " ذاقا " فيها حكاية عن آدم وزوجه وما عرض لهما من الفتنة أخبر عن ذلك بصيغة الماضي لانقضاء زمن الحدوث، بينما انخرط الخبر – على الصعيد الوظيفي– ضمن منظومة الخطاب الحجاجي بتجاوزه غاية الوصف والإعلام إلى التوجيه بما ضمن من قيم الاسترشاد والعظة والاعتبار .

تلاقت بعض أجزاء من هذا المشهد مع أجزاء من سورة طه، في قوله تعالى : " فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ "[آية:١٢١]، كما تلاقى سياق سورة الأعراف مع سياق سورة البقرة في مشهد سكنى آدم وزوجه الجنة، وهو المشهد المؤدي إلى سياق الفتنة .

في موقع الأعراف، يقول تعالى :"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" [آية:١٩]، وفي موقع البقرة " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ " [آية:٣٥].

بينما تنقل الآيات التالية لهذا المشهد في موقع الأعراف تفاصيل ما كان من إغراء الشيطان لآدم وزوجه حتى ذاقا الشجرة، يُعرض السياق في موقع البقرة عن ذكر ذلك، مكتفيا بتقديم نتيجته " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا "، و" الضمير في عنها للشجرة، أي فحملهما الشيطان على الزلة "[1].

فنحن بإزاء سياقات ثلاثة : أحدها لم يذكر فيه حدث الذوق أو الأكل، وإن مهد له في السياق بمثل تمهيد موقع الأعراف، والآخر عبر فيه عن الحدث بلفظة " ذاقا " بينما عبر عنه في موقع طه بلفظة " أكلا " .

---

(1) تفسير الكشاف ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي : ٧٢/١، دار المعرفة ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٩م.

فما حجية الإعراض عن ذكر الحدث في سورة البقرة، وما حجية "ذاقا" في الأعراف موافقا لـ" أكلا " في طه ؟ .

أولاً:

أما سياق سورة البقرة فمحوره (تكريم آدم وتكريم العلم)،" فإننا يمكننا القول : إن القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم . فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم . فهي تدور أساسا على تكريم آدم، وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف إنما هي مبنية على هذا التكريم . في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع التكريم فيها ثانويا "[1].

ومراعاة لمقصد التكريم أعرض السياق عن ذكر فتنة آدم، وما لحق به وبزوجه جراء ذلك من علة الانكشاف تعظيما لقدرهما، وأجمل معصيتهما ونتيجتها في قوله تعالى :" فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا"، وفي الأعراف " فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ"، "والإزلال غير التدلية فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التدلية فلا تكون إلا إلى أسفل ... فخفف المعصية في البقرة وسماها زلة مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف"[2].

ثانياً:

أن جملة ما تحتج له قصة آدم في خطابي "الأعراف" و"طه" واحد متفق، فموقع "الأعراف " يعرض قصة النشأة ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات

---

(١) التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي : ٢٨٨ ، دار عمان ، الأردن ، ط٤ ، ٢٠٠٦ م.

(٢) السابق : ٢٩١ .

عميقة " [١]، وذلك مما يتفق مع غرض سورة "طـه "ومـا تروميـه مـن " التـذكرة عن طريق الإنذار"[٢].

إلا أن اتفاق هـدف الحجـة فـي المـوقعين، لـم ينصـرف إلا علـى الغايـة القصوى من الخطاب وهي " الإنذار والتذكير"، وبقي احتجـاج أخـص وأليـق بكـل موقع وردت فيه القصة .

فخطاب قصة آدم في موقع (الأعراف) غايتـه شـكر المـنعم وتنزيهـه حيـث " ذكرت أن كلمة الله في استخلاف الإنسان والتمكين له هو استخراج شكره "[٣].

أما القصة في (طه) فقد ذكـرت " لتعليـل الإشـقاء وتبيـان حقيقتـه "[٤]، ولمـا كان الإشقاء ناجم عن النسيان الذي هو مسـبب عـن خـرق العهـد مـع الله فـإن " مرجع الأمرين أعني النسيان والميثاق وشقاء الحيـاة واحـد، وأن الشـقاء الـدنيوي من فروع نسيان الميثاق " [٥] .

اختلاف المقاصد، على هـذا النحـو، صـاحبه تبـاين فـي العناصـر المكونـة للخطاب الحجاجي، وذلك لأن الحجـاج انتقـائي باعتبـار المقاصـد إذ يقـع اعتمـاد

---

[١] في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١٢٤٧/٨ ، دار الشروق ، ط٣٢ ، ٢٠٠٣م.

[٢] الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي : ١١٧/١٤ ، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

[٣] الأساس في التفسير ، سعيد حوى : ١٨٦٧ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ط١ ، ١٩٨٥م.

[٤] السابق : ٣٤٠٨ ، " وهذا ينسجم مع السياق الخاص لسورة "طه " المبدوءة بقوله تعالى " طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " نقول هذا لنبين أن القصة عندما تتكرر في القرآن فإنها في كل مرة تقدم خدمة خاصة تتفق مع سياق السورة الخاص ، منسجمة مع محور السورة العام ".

[٥] الميزان : ١٣١/١٤ .

ما يمكن من تدعيم أو تأكيد النظرية بل ما يعد أقوى الحجج وأوكدها وفي المقابل يستبعد ما سوى ذلك .

فنشوء لون آخر من الهدف الحجاجي متابعا لخصوصية الخطاب في كل موقع، رافقه اختلاف آليات الحجاج وتقنياته . وذلك أن سياق (الأعراف) إذ يضطرد دعمه لكيفية صيانة الإنسان من الفتن استخراجا لشكره، ينفتح الخطاب على عالم الفتنة بطرح سبل حدوثها، بينما يعالج خطاب (طه) سبب وقوع الفتنة، وعواقب وقوعها .

وإذ يحتج موقع (الأعراف) لكيفية وقوع الفتنة، نجد الخطاب المنطقي يفرض ذاته، فيتخذ قوالب داخل القصة ويتمثل في صورة سلاسل شبه متعاقبة من الاستدلالات التي تطول حلقاتها القضوية، والقائمة على التدرجية والتراتبية في شكل سلالم حجاجية، تتقاطعها بنيتا التحاور، وتتابعات التفصيل في الوقفات الوصفية، حيث تغلب على الخطاب صيغة المنقول المباشر، وتنطوي البنية المنطقية، وبنيتا التحاور على ألوان من حجج الإثبات، والنفي، والتعليل، والتقييد، والاستفهام، والتكرار، والأمر والنهي [1]، ملابسا لحجاج السرد القصصي .

بينما في (طه)، إذ يكرس الخطاب لتعليل وقوع الفتنة وبيان نتائجها، تضمحل هذه البنائية الهيكلية من حجج التراتب المتمثلة في السلالم الحجاجية، وتقصر حلقاتها القضوية، فتتقلص الدرجات السلمية، ويختفي الحوار أو يكاد، ويحل الاختزال والحذف والإيجاز محل الوصف المشهدي، وتستولي حجتا

---

[1] وهما من أفعال الإنجاز الضمني ، لأن صيغة الأمر والنهى تحملان معنى الدعوة ومن ثمة تبدو صلتهما بالحجاج وثيقة لأنهما يهدفان إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين " الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه) سامية الدريدي : ١٥٩ ، عالم الكتب الحديث ، إربد، الأردن ، ٢٠١١م .

الإثبات والاستنتاج على بنية الخطاب، تقطعهما ألوان من حجج النفي، والاستفهام، والأمر، والنهي، في عرض قصصي يغلب عليه طابع المسرود

اختلاف بنيتي الحجاج، على هذا النحو، يقطع بتباين المقاصد في الموقعين،" فالبنية العميقة لأنواع الحجج قد تكون متشابهة أو متماثلة في كثير من النصوص الحجاجية، ولكن يبقى لكل نص حجاجي مساره الخاص به في عرض تلك الحجج وفي تنظيمها، وفي تماسكها، وفي القدرة على الملاءمة ما بين النص الحجاجي وسياقه الحجاجي للوصول إلى الإقناع "[1].

وإذ يعكف خطاب موقع (الأعراف) على الاحتجاج لـ (كيف تقع الفتنة) تدرج (ذاقا) ضمن مجموعة الاختيارات اللفظية التي تم انتقاؤها لغاية حجاجية، وفق منظومة الخطاب القرآني الذي يعنى بدقائق الخطاب ضمن قضاياه الكبرى، حيث تتداخل حركة التلفظ بما تنتجه من المعاني المتفاعلة مع مقصد الخطاب ومقامه، والتقنية الخطابية المنظمة للخطاب وإجراءاته، لإحداث درجة التناغم والانسجام بين مفاصل الخطاب ومكوناته، تحقيقا لكامل وظيفته الحجاجية، ولمثل ذلك ترد " أكلا" في موقع " طه "، الذي يعكف على إيضاح (أسباب الفتنة)، وإبراز(نتائجها).

ثالثاً:

من خلال عرض البنية الهيكلية لقصة آدم في "الأعراف"، وما يداخلها من بنى حجاجية والوقوف على ما تؤديه هذه البنى من الوظائف، يمكن استجلاء حجية " ذاقا " في موضعها . حيث تتبلور البنية الخارجية للقصة عبر آليتي السلم الحجاجي والحوار على الوجه الآتي :-

---

[1] الحجاج في الخطبة النبوية : ٢٨٧ .

السلم الحجاجي

تتمثل العلاقة بين الدعوى والحجة في السلم الحجاجي، في لون استدلال شبه منطقي، عبر الأدوات اللغوية، حيث يتم الظفر بفعل الحجاج من خلال تدرج الحجج وتواليها في ترتيب قوتها ارتباطا بالمدلول .

والسلم الحجاجي عبارة عن "مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين :

أ. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه .

ب. كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه "[1].

فالسلم الحجاجي هو حجاج التدرج القائم على رصد الزيادة أو النقصان في الحدث أو الواقعة اللسانية . ويمكنه أن يطوي بداخله كثيرا من أدوات الحجاج وآلياته، ليصبح هيكلا عاما يستوعب في داخله جملة ألوان من الحجج، تبعا للخطاب وما يتضمنه من دلالات التداول .

في موقع " الأعراف " تعتمد استراتيجية " السلم الحجاجي " بوصفها الاستراتيجية المركزية التي تؤسس البنية الظاهرة وتمثل الإطار الهيكلي للبنية الحجاجية . فتبدأ جملة الخطاب في القصة ببناء استدلالي يعتمد الحجة شبه المنطقية وسيلة إعداد عقلي يسمح بالمرور إلى حكاية " وجوب شكر المنعم " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ" [آية ١٠] . يضمر السياق الرابط الحجاجي " لكن"، وهي أداة لغوية تقوم بدور الربط الحجاجي بين القضايا، وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في

---

[1] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن : ٢٧٨/٢٧٧ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضا ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.

الخطاب، وهي حرف استدراك، ومعنى الاستدراك أن تتسب حكما لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها .

فما كان من نعم التمكين في الأرض والمعايش يستلزم نتيجة من قبيل "وجوب عبادة المنعم وشكره "، والآية تضمر " لكن " التي استلزم وجودها هذا التعارض بين ما تقدمها وما تلاها، إذ لا تتسق (لكن) بين الوحدات الوظيفية إلا إذا كان هناك بعض العلاقات المتضادة في محتواها الذهني أو التفاعلي . وكل خطاب تال لـ"لكن"هو الحجة الأقوى صوب الدعوى التي يدعيها المرسل، وهذا ما يجعل الاستدراك سبيلا إلى منح الحجة التي تأتي بعدها قوة أكبر، ويمكن توضيح هذه العلاقة الحجاجية بإظهار (لكن) كما في الرسم البياني التالي :

ن (التنبه إلى خطأ المسلك)

- قليلا ما تشكرون

لكن

- جعلنا لكم فيها معايش و
- مكناكم في الأرض

على هذا النحو يحقق الخطاب ما يرومه في انطلاق الآيات ورواية القصة وهو التنبيه على سوء استقبال نعم المنعم بقوله تعالى"قليلا ما تشكرون""، وهو تذييل قصد به التوبيخ" فإن النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة"[1]. و"لقد" تأكيد الخبر بلام القسم وقد، المفيد التحقيق . تنزيل الذين

---

(١) تفسيرالتحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور: ٣٣/٨ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

هم المقصود من الخطاب منزلة من ينكر مضمون الخبر لأنهم لما عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أن الله هو الذي مكنهم من الأرض أو كحال من ينكر وقوع التمكين من أصله " [١].

يلحق بالآية ما يدل على اتساع قدر النعم، بما يمكن تمثيله على سلم الحجاج على الوجه التالي :

(ن) وهى ضمنية (استحقاق الله بإخلاص العبادة له وحده)

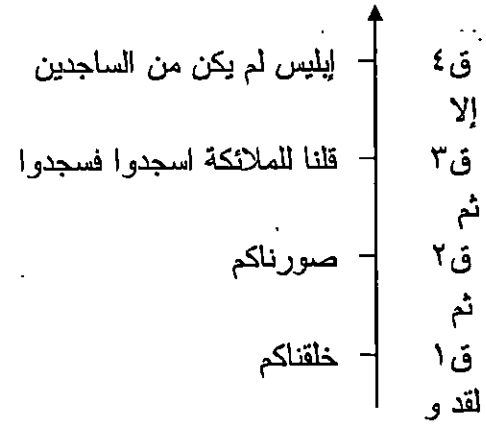

إدماج المقدمة الرابعة ضمن حجج (بيان نعم إيجاد النوع والتفضيل) قصد منه شمول المقدمات كل المعطيات التي تقود إلى النتيجة التي يوجه إليها الخطاب، وفي التحرير والتنوير " وأدمج في هذا الامتنان تنبيه وإيقاظ إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيدا للتحذير من وسوسه وتضليله، وإغراء بالإقلاع عما أوقع فيه الناس من الشرك والضلالة وهو غرض السورة "[٢].

---

[١] السابق : ٣٣/٨.

[٢] التحرير و التنوير :٥/٨ .

تتتابع السلالم الحجاجية في الآيات بصورة مضطردة، ترصد القضية أو القضايا المطروحة في تـوال وتراتب يكرس مجالا لاستكمال بنية الحجاج الخارجية واستلهام حجية " ذاقا "، ونعرض لها تباعا – في اختزال – وصولا إلى سياق الفتنة الذي وردت فيه (ذاقا) :

" فاهبط منها "(ق١)، "فاخرج "(ق٢)، " إنك من الصاغرين "(ن) . " أنظرني إلى يوم يبعثون "(ق)، " إنك من المنظرين "(ن) . "لأقعدن لهم صراطك المستقيم "(ق١)" ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم "(ق٢)، "ولا تجد أكثرهم شاكرين "(ن) ." قال اخرج منها مذؤما مدحورا "(ق١) (المتبوع العاصي)، " لمن تبعك منهم "(ق٢) (التابع العاصي)، لأملان جهنم منكم أجمعين (ن) (كلاهما في النار)(استحقاقهما للنار).

ثم يمهد الخطاب لسياق فتنة إبليس لآدم بنداء من الله إلى آدم ذي مقاصد منها بيان ندرة المنع قياسا باتساع المنح . ما يمكن إدراجه على سلم الحجاج كالتالي :

(ن) ا ↑ لمضمرة (اتساع الممنوح وندرة الممنوح)
ق٣– لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين
و
ق٢ – كلا من حيث شئتما
فـ
ق١ – اسكن أنت وزوجك الجنة

فكأن الله جعل لآدم في جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لا " افعل"، والرمز الثاني : لا "لا تفعل"، ونجد أن الذي نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به "[١].

ويبنى سياق فتنة آدم على التتابع في الأحداث تأسيسا على بنية الواقع، حيث يبدو الكائن الذي كرمه الله وأسجد له إبليس، مزدوج الطبيعة،" فيه نقط ضعف معينة يقاد منها ... من هذه النقط تمكن إصابته، ويمكن الدخول إليه .. إن له شهوات معينة .. ومن شهواته يمكن أن يقاد "[٢] .

(ن)	فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما
ق٤ – ف	دلاهما بغرور
ق٣ – و	قاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين
ق٢ – و	قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ...
ق١ – ف	وسوس لهما الشيطان

---

[١] تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن) ، محمد متولي الشعراوي : ٤٠٨٠/٧ ، نشر أخبار اليوم،١٩٩١م

[٢] في ظلال القرآن : ١٢٦٨/٨ .

" فوسوس لهما الشيطان " أي فعل الوسوسة لأجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا مكررا، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلي" [١] .

وعطف جملة " ما نهاكما ربكما " على جملة " فوسوس " يدل على أن الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله

" ما نهاكما " إلخ ثم ثنى وسوسته بأن قال ما نهاكما، ولو كانت جملة " ما نهاكما ربكما " إلى آخرها بيانا لجملة: " فوسوس" لكانت جملة "وقال ما نهاكما " بدون عاطف، لأن البيان لا يعطف على المبين . وفي هذا العطف إشعار بأن آدم وزوجه ترددا في الأخذ بوسوسة الشيطان فأخذ الشيطان يراودهما " [٢].

الحوار :

تعتمد أهمية الحجاج بالحوار على قيمه الثابتة وضوابطه المضمنة حده الاصطلاحي فهو" مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر حول موضوع محدد، بصورة متكافئة، ويغلب عليه الهدوء في الوصول إلى الحق، والبعد عن التعصب والخصومة " [٣] .

فهو آلية حجاج يقصد إليها لإدراك درجات أعلى من الإقناع، بما يتضمنه من التفصيل والانبساط للفكرة واستجلائها من شتى جوانبها .

وتتجلى كفاءة البنية الحوارية حجاجيا في :

---

[١] تفسير أبي السعود ،أبو السعود محمد بن محمد العمادي : ٢٢٠/٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان.

[٢] التحرير والتنوير : ٥٨/٨ .

[٣] الحوار وآدابه ، وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى بن محمد زمزمي : ٦ ، دار التربية والتراث ، مكة المكرمة ، رمادي للنشر، الدمام ، ١٩٩٤ م.

ـ مباشرة التأثير وقوته، إذ ينفذ أثر الحجة في الخصم بصورة سريعة، أو يلوي معاندا، ولكل وجهة ومآل .

ـ إعلاميتها : إذ يبقى وقعها حاسما على نفوس شهودها الفعليين وقت الحدوث، وعلى نفوس مطالعيها فيما بعد إذ يتمثلون سياقها .

إن استرتيجية الرد والمدافعة، تمنح الخطاب طاقة حجاجية تثبت وفقا لها قواعده وتترسخ مضامينه في كيانات الجمهور الذي بدأت تتخلق هيئاته وتتسوى ملامحه من خلال فعل الخطاب فيه، إذ يتمثل فعل الخطاب في اتساع دائرة النظر العقلي اتساع احتياج وانتشار ذلك من خلال التئام جماعته وسيادة أفكاره "[١] .

وهو في الخطاب القرآني " تجسيد الصورة الحقيقية المتحركة للتاريخ الرسالي، الذي يريد أن يرتبط بالحاضر في وحدة رسالية رائعة، أو للقضايا الحيوية التي يريد القرآن إثارتها في حياة الناس وتعميقها في نفوسهم "[٢]، حيث يلتحم الزمن القصصي وزمن السرد، فيصير حاضر السرد هو حاضر الأحداث، فيتحول المتلقي إلى مشاهد يعاين الوقائع بنفسه، ينفعل بها، ويتفاعل معها كأنه واحد من شخصيات المشهد " [٣]. من ثمَّ عد الحوار أحد

---

(١) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث فى الأشكال والاستراتيجيات) ، علي الشبعان : ٣٣٤ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، مارس ٢٠١٠ م.

(٢) الحوار في القرآن ، قواعده – أساليبه – معطياته ، محمد حسين فضل الله : ٢٣٢ ، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٩٩٦م.

(٣) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ، محمد مشرف خضر : ١١٧ ، (رسالة ماجستير) جامعة طنطا ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، ٢٠٠١ م.

أهم المسائل في المنطق الإسلامي، لكونه أسلوبا متحركا عمليا في الوصول إلى الحقيقة وفي تكوين القناعات" [١].

في موقع "الأعراف" تفصل قصة آدم أمر الفتنة وطرق الافتتان، من خلال حوارين، أولهما بين الله تعالى وإبليس، والآخر بين إبليس وآدم .

يستهل الحوار الأول منهما بتحول صيغي من المتكلم بالتعظيم إلى الغائب :" وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " [الآيات: ١١: ١٣] .

هذا التحول الصيغي من " قلنا " إلى " قال "، هو لون من الحجاج ينجم عنه أثر تداولي إقناعي يرومه الخطاب، حيث طوعت الضمائر وصيغة السرد لخدمة الموقف المحكي، فعندما كان الحديث عن التمكين في الأرض والخلق والتصوير كان استعمال السرد مناسبا لأنه حديث تكريم للمخاطبين، وعندما انتقل الخطاب إلى إبليس استخدمت صيغة المنقول المباشر، " وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتا نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار

---

[١] الحوار في القرآن : ٢٢ .

مقام توبيخ لإبليس خاصة" [١]، وربما في هذا الالتفات "إلماح لعظم الأمر الواقع من إبليس " [٢].

الأمر" اسجدوا لآدم " خطاب عام يتناول جميع الملائكة . ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس . وهو أنه مخلوق من النار والنار أشرف من الطين " قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين". كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس " [٣]، وهذا الأمر ذو قيمة حجاجية ففيه تكريم لآدم عليه السلام، وبه قابل الله تعالى بين فعل الملائكة وفعل إبليس، واستصدر به جملة الأوامر التالية، فأهبط منها، فاخرج، اخرج منها ... وعلى ذلك فهو نقطة الانطلاق ومصدر الإثارة لوقائع الفتنة .

الاستفهام: " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك "، يستعمله المرسل على أنه الحجاج بعينه . قوة الانجاز في هذا الفعل الكلامي خاصة تتبع من اللفظتين (ألا) و (أمرتك)، " والاستفهام من أعلى الأفعال اللغوية حجاجيا، إذ " إن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٣٩/٨.

(٢) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم : ١٢٨ .ويرى السامرائي أن هذا التحول موافق لمعهود الخطاب القرآني ، فالتخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه (قلنا) ، والتشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) "وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم . فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به " التعبير القرآني : ٢٩٣ .

(٣) التفسير الكبير ، محمد الرازي فخر الدين : ٣٦/١٤- ٣٧ ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، ط١٩٨١،١م.

طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم بجواب ما"[١].

وتكمن قوة الحجاج بالاستفهام خاصة في قصدية المرسل غير المباشرة، فالسؤال هنا " عن المانع – مع علمه به – للتوبيخ ولإظهار معاداته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وتحقيره أصل آدم " [٢]، ومن ثم فبينما قوة السؤال الحرفية هي الاستفهام فإن قوته الإنجازية المستلزمة هي التوبيخ .

فمن إجابة إبليس تشهر مكامن نفسه، وتفضح نوازعه التي أورثته اللعنة وألزمته الصغار " أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين "، وفي إجابته استلزام حوارى، حيث يقوم المكون الدلالي بإبراز مقصد المتكلم التداولي، من خلال خرق مبدأ التعاون في جانبي : الكيف والملاءمة، ففي جانب الكيف، خرق إبليس بإجابته قاعدة " لا تقل ما تفتقر إلى دليل كاف عليه "، وفي جانب الملاءمة أو المناسبة خرق قاعدة " كن ملائما" .

فكان من الحري إذا سمع قوله : " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك " أن يأتي بما يطابقه من الجواب، كأن يقول : منعني أني خير منه، لكنه أتى بقوله (

---

(١) (لا) في (ألا) لنفي ما دخلت عليه ، فهي معارضة للإثبات ، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ، أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط " البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي : ٣/٧٩- ٨٠ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة . فـ "لا" جاءت في الآية تأكيدا للنفي المعنوي الذي تضمنه " منعك " وتحقيقا له ، وكذلك " أنها تفيد التنبيه على أن الموبخ ترك السجود " دراسات في النحو العربي ، فتحي عبد الجبار زيدان : ٢٦١ ، جامعة الموصل ، العراق ، مكتبة الثقافة الدينية ، وفاعلية " لا " في نطاق الحديث عن الكبر كونه أصل كل ضلال في الفكر وكل بعد عن الحق ، تنسيقا مع خصوصية المطروح في سياق الأعراف . وقوله " إذ أمرتك " دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور " تفسير البيضاوي : ٣/٧ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ .

(٢) الأساس : ١٨٦٧ .

أنا خير منه) ليظهر الإنية، ويفيد الثبات والاستمرار، ويستفاد منه أن المانع له من السجدة ما يرى لنفسه من الخيرية فقوله (أنا خير منه) أظهر وآكد في إفادة التكبر" [١] ، فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين"[٢] ،ومن ثم فهو أول من فتن وأول من وضع قواعد الفسوق والمعصية .

يؤدي حجاج النفي دوره في بيان علة الخروج من الجنة والهبوط " ما يكون لك أن تتكبر فيها"، ويأتي حجاج الإثبات " إنك من الصاغرين " داعما لحجة النفي، وفي نظم الدرر " كل من أظهر الاستكبار ألبس الصغار "[٣] ، وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه تعالى انما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه .

ينتهي عرض فتنة إبليس بقوله تعالى :" قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ "[الآيتان :١٤،١٥]، ليبدأ عرض تفصيلي في بيان كيف يوقع إبليس البشر في حبائله " قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ " [١٦: ١٨] .

تستولي حجة التعليل على مقولة إبليس " فبما أغويتني " " الباء سببية وهي ظرف مستقر واقع موقع الحال من فاعل " لأقعدن " أي أقسم لأقعدن لهم حال

---

[١] الميزان : ٢٥/٨ .

[٢] تفسير أبي السعود : ٢١٦/٣ .

[٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي : ٣٦٦/٧ ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

كون ذلك مني بسبب إغوائك إياي"[١]، وما ذلك القسم على إغواء البشر إلا ظنا من إبليس أنهم سبب غوايته، ومن ثم فقد أقسم " بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده "[٢].

بينما تقتحم حجة النفي " ولا تجد أكثرهم شاكرين " عالم حجاج التعليل حيث يجيء ذكر الشكر، تنسيقا مع ما سبق في مطلع السورة " قليلا ما تشكرون " .. لبيان السبب في قلة الشكر .

وتبرز في السياق حجج الإثبات والتوكيد " لأقعدن، لآتينهم، لأملان، أجمعين . فمع تأكيد إبليس لإحاطته بالإنسان وإيقاعه به، جاء الرد الرباني بتوكيد العقاب، وللتوكيد " دور حجاجي يتمثل في توجيه المقول والقول معا . والمقصود بالمقول موضوع الكلام، وبالقول مدى حضور الذات القائلة في كلامها " [٣].

الأوامر والنواهي التي تمثلها (اسكن، كلا، لا تقربا) تهدف إلى تربية الإرادة وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها " [٤]،" فأحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي،

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٦/٨ .

(٢) في ظلال القرآن : ١٢٦٧/٨.

(٣) الحجاج في القرآن : ٣١٦ .

(٤) في ظلال القرآن : ٢٣٥٣/١٦ .

لأن معظم الابتلاء بهما، وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام ويتميز الحلال من الحرام "[١] .

أما الحوار الذي وقع بين إبليس وآدم والذي أدى إلى ذوق الشجرة، فهو أقرب إلى الاستدلال ذي المسحة الحوارية، بظهور دور إبليس فيه مهيمنا على الحوار وموجها له " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ" [الآيات : ٢٠ :٢٢].

فقد وسوس الشيطان لآدم، وقال له ما قال، وقاسمه دون أن يشاطره الحوار والحجة، " فقاسمهما " أي قبلا القسم ودخلا فيه "، وإن وجه بعضهم صيغة "قاسم" على المشاركة في القسم [٢] .

حجة التعليل في قوله : " ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما " قائمة باعتبار اللام للغرض والمعنى : أن غرضه من إلقاء تلك الوسوسة إلى آدم

---

[١] الأصول ، أبو سهل السرخسي : ١١/١ ، حقق أصوله : أبو الوفاء الأفغاني ، عنيت بنشره لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد، الدكن بالهند ، اشرف على طبعه رضوان محمد رضوان ، مطابع دار الكتاب العربي .

[٢] تفسير الشعراوي : ٤٠٨٤/٧ – ٤٠٨٥ .

زوال حرمته وذهاب منصبه"[١]، وألفاظ التعليل ومنها " اللام " من الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه"[٢].

غياب أدوات القصر : ما ... إلا، في قوله تعالى : " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " يجعل الكلام لمجرد الإبلاغ والإعلام فتكتفي اللغة بوظيفتها الإعلامية، ولا تتعداها إلى الحجاجية، فبغياب العوامل الحجاجية يكون الكلام وصفا لما عليه الأشياء، ومن ثمَّ فالعامل هنا يحقق العاملية الحجاجية، يقول الجرجاني : " وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه فإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيدا وأنه إنسان آخر ويجد في الإنكار أن يكون زيد "[٣]. فهذا القصر إذ يدعم حجية قول إبليس، فإنه يكشف عن الشك والإنكار في نفس آدم عليه السلام، ويظهر استقامة طويته .

حجة الإثبات " وقاسمها إني لكما لمن الناصحين " تدعم هذه الحالة من الإنكار والتردد التي اعترت آدم، " (وقاسمهما) أي أقسم لهما، لكن ذكر المفاعلة ليدل على أنه حصلت بينهما في ذلك مراوغات ومحاولات بذل فيها

---

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ١٤.- ٤٩ وفي تفسيرالبيضاوي " اللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضا بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما " :٨/٣ .

(٢) استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ، عبد الهادى بن ظافر الشهري : ٤٧٨ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٣ م.

(٣) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٢٥٦ ، تصحيح محمد رشيد رضا ، بيروت ، لبنان ،د.ت .

الجهد، وأكد لمعرفته أنهما طبعا على النفرة من المعصية، ما أقسم عليه أنواعا من التأكيد فى قوله : (إني لكما) فأفاد تقديم الجار المفهم للاختصاص أنه يقول : إنى خصصتكما بجميع نصيحتي (لمن الناصحين) وفيه تنبيه على الاحتراز من الحلف، وأن الأغلب أن كل حلاف كذاب، فإنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه، ولا يظن ذلك إلا وهو معتاد للكذب"[١].

تكرار كلمة "سوآتهما" التي تحوي من الإضافة ما يحمل معنى الملاصقة، هو رافد أساسي يرفد الحجج والبراهين التي أتى بها الخطاب، "بمعنى أن التكرار يوفر لها طاقة مضافة تحدث أثرا جليلا في المتلقي وتساعد على نجو فعال في إقناعه أو حمله على الإذعان، ذلك أن التكرار يساعد أولاً على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانياً على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان"[٢]، وأفضل ما يكون هذا مما يوافق منه المقام، وقد تم استخدامه هنا في أعلى المقامات التي تتطلب التكرار وهو مقام التذكير والإنذار، "(سواتهما) أي المواضع التي يسوءهما انكشافها، و في ذلك أن إظهار السوءة موجب للبعد عن الجنة، وأن بينهما منفية الجمع وكمال التباين"[٣]، "وذلك قصد الحسود"[٤]، "وفي ذلك إشارة إلى أن الستر ملازم لتنفيذ الأمر"[٥].

---

(١) نظم الدرر : ٣٧٣/٧.

(٢) الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه) : ١٦٨ .

(٣) نظم الدرر : ٣٧٢/٧ .

(٤) السابق : ٣٧٤/٧ .

(٥) الأساس : ٣٤٠٩ ، وقد تكرر ذكر الكلمة فى سورة الأعراف مرات أربع .

رابعاً:

انطلاقا من فكرة أن لكل ملفوظ مقامه التداولي، وإدخال هذا المقام كعنصر فعال في عملية إنتاج الملفوظ، وذلك خلال السياق الذي ينجز فيه عبر مستوى الخطاب، أي الحدث الكلامي، وما يتطلبه من معايير، وردت (ذاقا) في موقع الأعراف احتجاجا لعدة أمور منها :

١) قلة المأكول، " (فلما ذاقا الشجرة بدت) وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير قصدا إلى معرفة طعمه، ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل، لأن الذائق قد يكون ذائقا من دون أكل " [١]، وفي روح المعاني " (فلما ذاقا الشجرة) أي أكلا منها أكلا يسيرا " [٢]. وفي هذا دلالة على أن ذوق الشيء المحرم يوجب الذم فكيف إذا تناول منه ما يقضي به وطره ؟، كما أنه يوضح أن المقصود من الأكل هو إدراك الطعم، وليس المخالفة لأمر الله .

٢) غلبة الشهوة على المنطق، حيث يستخدم الذوق في المأكول لاستشعار المذاق، وفيه إشارة إلى مقارنة المعصية بالشهوة، وفي الظلال " ونسي آدم وزوجه – تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر – أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير" [٣]، وفي ذلك ما يعني "أنهما إنما أقدما على الأكل لغلبة الشهوة، لا أنهما صدقاه علما أو ظنا كما نجد أنفسنا عند الشهوة نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال"[٤] .

---

[١] التفسير الكبير : ٥٣/١٤.

[٢] روح المعاني : السيد محمود شكري الألوسي البغدادي :١٠١/٨ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان .

[٣] في ظلال القرآن ١٢٦٩/٨ .

[٤] التفسير الكبير : ٥٢/١٤.

٣) قدر الصراع النفسي الذي نال آدم وزوجه عند الإقدام على المخالفة، يقول الشعراوي : " وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل في النفس، (فلما ذاقا الشجرة) هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزع من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر"[١] .

٤) إشارة إلى سرعة الجزاء، " (فلما ذاقا) مشيرا إلى الإسراع في الجزاء بالفاء والذوق الذي هو مبدأ الأكل"[٢] .

٥) تكشف عن غريزة حب الاستطلاع لدى الإنسان، وفي الكشاف " فلما ذاقا الشجرة أي وجدا طعمها آخذين في الأكل منها "[٣]، " ذلك أن إصرار إبليس وإلحاحه على قيادة آدم للمعصية، حركت في نفس آدم وزوجه نوازع الرغبة في المعرفة " وغريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متحكمة في طفولة الإنسانية، كما هي متحكمة في طفولة الأطفال . وطفولة الإنسانية كلها مندسة في كيان " آدم " ولهذا فإن هذا النهي الذي تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم موقعين :

أ موقع الخوف من الجهة التي ألقت إليه بهذا النهي والحذر من أن يخالف ما نهي عنه .

ب الرغبة الصارخة في مداناة هذه الشجرة والتعرف عليها، وعلى ما يكمن فيها .

---

(١) تفسير الشعراوي : ٧ /٤٠٨٦.

(٢) نظم الدرر : ٣٧٤/٧ .

(٣) الكشاف : ٣٥٩/٨ .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة، كانت وسوسة إبليس لآدم وإغراؤه له – الأمر الذي عجل بخطوات آدم إلى الشجرة "[١].

ومن ثم فـ " ذاقا " في "الأعراف" تندرج ضمن حيثيات " كيف تقع الفتنة "؟، فهي انتقاء لفظي ضمن منهج "كيف " الذي يوضح كيفية وقوع الفتن، ويفصل لتلك الكيفية .

بينما تتبع حجية " أكلا " في سورة "طه"، من الهدف الذي يرومه الخطاب وهو الكشف عن علة الفتنة (لماذا تقع الفتنة) وتبيان نتائجها، والسياق في (طه) سياق تسمية المخالفة بأقوى وأشد الوصف [٢] ، متابعة لحالة الوضوح والإعلان في الحدث، "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما "، " وعصى آدم ربه فغوى "، فهل ترى سياقا كهذا يحجم عن عرض معصية آدم وزوجه – شأن سياق "البقرة" – أو يجعلها ذوقا شأن سياق "الأعراف"؟.

سياق " طه " تركيز على خطيئة الإنسان التي تورده المهالك وهي " النسيان "، قائم على الأفعال : نسي فأكلا، عصى فغوى . وفي مثل هذا السياق لا سبيل إلى وصف المعصية بمقدارها قلة أو كثرة، بل هو سياق وصفها العام وصولا لبيان أن سبب وقوعها هو النسيان .

كما أنك إذا اعتبرت بالسياق في "طه" لوجدت كيف وعد الله آدم في معيته (في الجنة) بألا يجوع ولا يعرى " إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى "، ومع مراجعة دلالة المضارع (تجوع، تعرى) تجده سبحانه وقد ضمن له دوام الأكل الذي يلازمه دوام الستر، حيث قابل هذا – جراء غواية إبليس – أكل عارض أعقبه الكشف " فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما "، فكأنما السياق مقابلة

---

[١] القصص القرآني في منطوقة ومفهومه، عبد الكريم الخطيب : ٣٨٧، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٥م.

[٢] الكشاف : ٣٥٩/٨ .

حالتين كلتاهما " أكل " تقابلت فترته الزمنية ومقاديره ونتائجه، بثمة علاقة حسية بين المعانى : أكل/ستر، أكل/كشف . وليس الأمر كذلك في "الأعراف" وعلى ذلك فـ "أكلا" في "طه" تأتي تنسيقا مع مقام السورة، وموضوعاتها، والألفاظ المناسبة لذلك المقام، فقد " عبر بالأكل في "طه"، لمناسبة التصريح بالمعصية، والغواية فيها، والتصريح بلفظ الجوع، وأما الذوق في "الأعراف" فمناسب للنهي عن الاقتراب من الشجرة "[1].

على أنه دل بالفاء في (طه) في قوله " فبدت"على"ذاقا" ذلك أن الذي جذرهما منه وقع بمجرد أن ذاقا الشجرة، فضلا عن الأكل منها " فأكلا منها فبدت "، فكان الخير في امتثال أمر الله، وإلا فإن يسير المخالفة موقع في الضرر .

الصيغة الثانية (يذوق)

وردت صيغة المضارع " يذوق " في سبع آيات قرآنية، وهي الآيات من قوله تعالى :

(١) وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ [النحل:٩٤]
(٢) أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ [المائدة:٩٥]
(٣) كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [النساء :٥٦]
(٤) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ [الدخان:٥٦]
(٥) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا [النبأ:٢٤]
(٦) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ [ص:٨]
(٧) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ [ص:٥٧]

من هذه الآيات ما جاء بالفعل مجردًا من الضمائر(يذوق)، ومنها ما جاء مضارعًا مبدوءًا بتاء(تذوقوا) أو ياء(يذوقوا) . منها ما جاء مثبتا (يذوقون) ومجزوما (فليذوقوه) ... وهكذا، و كلها يشير إلى العذاب الذي يذيقه الله

---

[1] الكشاف : ٣٥٩/٨.

للكافرين، إلا الآية من سورة الدخان التي وردت في نفي ذوق الموت لأهل الجنة _ و ذوقه نوع من العذاب_ و جميعها من سور العهد المكي، عدا الآيتين من سورتي المائدة و النساء فهما مدنيتان .

ونتوقف لدى إحدى آيات العذاب نستعرضها حجاجيا لثرائها، و هي الآية من قوله تعالى : " وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ، أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ " [ص ٤ :٨] .

ويبنى الحجاج الواقع في الآية " أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب "على رابط التعارض " بل"، وذكرها يعني الإضراب عن الكلام السابق لها والإيجاب للاحق عليها، أي الانتقال من غرض إلى غرض، ما يعني ترك شيء من الكلام وأخذ غيره، فهي تنبيه على انتهاء غرض واستئناف غيره، حين يتم الانتقال من جملة إلى أخرى أهم

والتعارض الحجاجي بـ " بل " يكون بين ما تقدمها وما تبعها حيث يكون ما قبلها حجة تخدم نتيجة، وما بعدها حجة تخدم نتيجة مضادة . ودائما ما تكون الحجة الثانية أقوى من الأولى، بحيث يتوجه القول بمجمله نحو النتيجة المضمرة للحجة التالية بعد "بل".

" أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى"، " أأنزل عليه الذكر من بيننا "، إنكار لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أدون منهم في

الشرف والرياسة "[١]، بمعنى : نحن الأشراف الأعلام، فلم خص هو؟ وكيف يصح هذا؟"[٢]. وهذه الحجة التي انبنت على حسدهم وقصور نظرهم، تؤدي إلى نتيجة وهي :"مرجع تكذيبهم عدم استحقاق محمد للنبوة " .

"(بل هم في شك من ذكرى) إضراب عن جميع ما قالوه أي أنهم لم يقولوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكرى وهو القرآن "[٣] ، فهذا الإضراب الانتقالي من خبر إلى خبر آخر حمل نتيجة أقوى وهي : " تكذيبهم لارتيابهم في كنه القرآن "، وهذه النتيجة سارت في اتجاه مضاد للنتيجة السابقة .

" بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب "، " بل لما يذوقوا عذاب " هو إضراب إما عن مجموع الكلامين السابقين، حديث الحسد في قوله تعالى (أأنزل) الخ وحديث الشك في قوله تعالى (بل هم فى شك) .. أو إضراب عن الإضراب قبله "[٤]. وهو إضراب لاستقبال التهديد والوعيد بالعذاب، أي

---

[١] تفسيرالبيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي: ٥٨٢٤ ، دار إحياء التراث ، بيروت، لبنان .

[٢] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي : ١٥٩٢ ، تقديم مجد مكي ، طبعة دار ابن حزم.

[٣] الميزان : ١٨٥/١٧ ، وفي التحرير والتنوير : ٢١٤/٢٣ " (بل) للإضراب الانتقالي ، والمعنى : وهم فى شك من ذكرى ، أي في شك من كنه القرآن ، فمرة يقولون : افتراه ، ومرة يقولون : شعر ، ومرة : سحر ، ومرة أساطير ، ومرة قول كاهن " .

[٤] روح المعاني : ١٦٨/٢٣ .

لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق "[١] . ويمثل لنتيجة هذا الإضراب على الوجه التالى :

عدم التحقق من صدق الرسالة (لم يؤمنوا) (ن) التحقق من صدق الرسالة والقرآن (لا- ن)

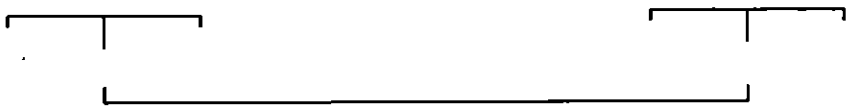

هم في شك من ذكرى (ح١) لما يذوقوا عذاب(ح٢)

النتيجة : التأكد من صدق الرسالة والكتاب (لا- ن)

قوة الطاقة الحجاجية في هذا الإضراب خاصة مرجعها انتقاء حزمة الألفاظ في قوله تعالى " لما يذوقوا عذاب" .

" لما " وقد استخدمت نفيا لوقوع العذاب وإنذارا به، وفي استخدامها خاصة ما يفيد استغراق النفي في جميع الزمن الماضي ليصبح المعنى في (لما يذوقوا) من أول أمرهم إلى الآن "[٢]، كما أن لها " خصوصية، وهي أنها تدل على أن المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم بخلاف (لم) فلذلك كان النفي بـ (لما) قد يفهم منه ترقب حصول المنفي بعد ذلك "[٣]، فالتعبير " بلما دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع "[٤]. ومن ثم

---

[١] المحرر الوجيز:١٥٩٢.

[٢] "وقيل لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه " تفسير أبي السعود :٣١٦/٧ .

[٣] نظم الدرر : ٣٣٦/١٦.

[٤] التحرير والتنوير : ٢١٥/٢٣ .

فالتعبير بـ (لما) نقل التقرير الخبري للجملة المنفية في قوله " لما يذوقوا عذاب " إلى التوجيه للتهديد والوعيد والسلوك به في زمرة الأفعال الإنجازية التأثيرية.

واستخدام المضارع " يذوقوا " مسبوقا بـ " لما " يحمل دلالة نفي وقوع العذاب نفيا متجددا، واستخدام مادة " الذوق"فيه مما يزيد من قوة وقع التعنيف والتهديد لمن هم من الذكر في عزة وشقاق، فشأنهم التكذيب والإنكار والمماراة والنهي عن الاتباع، لما في أصل استخدامه المجازي من دلالة شدة الإدراك والشعور، كما أنه مما يهيئ للعذاب الدائم في الآخرة، من حيث إن الذوق يعني الاستطعام السريع الذي غالبا ما يعقبه الأكل، ومن ثم فعذابهم في الدنيا تمهيد لعذاب الآخرة .

" عذاب " التنكير فيه تعظيما له ولمعنى مطلقه أي بأي من أنواعه، وإضافته إلى ياء المتكلم " لاختصاصه بالله لأنه مقدره وقاض به عليهم ولوقوعه على حالة غير جارية على المعتاد إذ الشأن أن يستأصل الجيش القوى الجيش القليل " [1].

الصيغة الثالثة (ذق)

ورد الأمر " ذق " في أربعة وعشرين موضعا من القرآن الكريم، جميعها في مواقف العذاب، وهي الآيات من قوله تعالى :

(١) أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[آل عمران- الآية ١٠٦]

(٢) وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[آل عمران – الآية ١٨١]

(٣) قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[الأنعام – الآية ٣٠]

(٤) فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ[الأعراف – الآية ٣٩]

---

[1] روح المعاني : ١٦٨/٢٣ .

(٥) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ [الأنفال – الآية ١٤]
(٦) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[الأنفال – الآية ٣٥]
(٧) يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواعَذَابَ الْحَرِيقِ[الأنفال – الآية ٥٠]
(٨) هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ[التوبة – الآية ٣٥]
(٩) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ[يونس – الآية ٥٢]
(١٠) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[الحج – الآية ٢٢]
(١١) وَيُقَالُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[العنكبوت – الآية ٥٥]
(١٢) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا[السجدة – الآية ١٤]
(١٣) وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[السجدة – الآية ١٤]
(١٤) وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ[السجدة – الآية ٢٠]
(١٥) وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ[سبإ – الآية ٤٢]
(١٦) فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ[فاطر – الآية ٣٧]
(١٧) وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ[الزمر – الآية ٢٤]
(١٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[الدخان – الآية 49]
(١٩) قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[الأحقاف – الآية ٣٤]
(٢٠) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[الذاريات – الآية ١٤]
(٢١) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ[القمر – الآية ٣٧]
(٢٢) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ[القمر – الآية ٣٩]
(٢٣) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ[القمر – الآية ٤٨]
(٢٤) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا[النبإ – الآية ٣٠]

والأمر " طلب فعل – غير كف – على جهة الاستعلاء "[١]، والاستعلاء المقصود هو" عد الآمر نفسه عاليا، سواء كان عاليا في نفسه حقيقة أم لا، لتبادر الفهم عند سماع صيغته إلى ذلك، والتبادر علامة الحقيقة، هذا هو الأصح عند علماء الفن"[٢].

النظر إلى دلالة الاستعلاء في الأمر، مما يحدد منزلة المتكلم وحاله أمام المخاطب، حيث تؤدي صيغة "الأمر" غرضا خطابيا خاصا، ووظيفة تواصلية معينة .

وكون الأمر " طلب فعل " يعني أنه " استدعاء الفعل بالقول " [٣]، وأن حقيقة الأمر الدعاء إلى الفعل"[٤]" ما يجعل الأمر فعلا كلاميا إنجازيا، لأنه مع الأمر يصبح المتوقع ردود أفعال لا أقوال، فـ " عادة ما لا يتوقع في ... الأمر رد فعل لغوي، بل عمل محدد "[٥].

---

(١) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، (ضمن شروح التلخيص) ، سعد الدين التفتازاني : ٢/٣٠-٣،٨ بيروت،دار الكتب العلمية .

(٢) شرح عقود الجمان ، عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد العمري المعروف بالمرشدي :١/١٩٠ ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط٢ .

(٣) شرح اللمع ، الشيرازي: ١/١٩١ ، تحقيق عبد المجيد التركي ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م.

(٤) الكافية في الجدل ، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني : ٣٣ ، تقديم وتحقيق وتعليق فوقية حسين محمود ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ،١٩٧٩م.

(٥) مدخل الى علم النص(مشكلات علم النص) ، زتسيسلاف أورزيناك ، ترجمة سعيد حسن بحيري :١٢٠ ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط١، ٢٠٠٣ م.

فالأمر من هذا المنطلق تصاحبه وظائف تواصلية من جهة، وتوجيهية من جهة أخرى، حيث يمارس الخطاب التوجيهي لونا من الضغط والتدخل بدرجات متفاوتة على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل ما .

وإن كان بعضهم ينفي عن الأمر وظائفه الحجاجية، ومنهم بيرلمان الذي يقرر أنه ليس للأمر على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن أية طاقة إقناعية .

إلا أن الأمر (ذق) يمكنه اختراق قاعدة انتفاء حجاج فعل الأمر، حيث يعتمد الأمر " ذق " الذي يرد في الخطاب القرآني في مقام التهديد والوعيد في حجاجه على ما في الملفوظ من الضمنى المخبوء، الذي يخرج دلالة الأمر إلى دلالة تداولية هي الإهانة أو الإذلال، لإظهار ما فيه تصغير المهان وقلة المبالاة به .

وترد صيغة الأمر للإهانة إذا استعملت في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان، والعلاقة بين الأمر والإهانة واضحة، لأن طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه مع كونه من الأحوال الخسيسة يستلزم الإهانة .

والإهانة يلزمها غالبا : التهكم والسخرية "[1] بالمهان، ذلك أنه بلغ من المهانة بحيث يؤمر ولكن ليس لقصد أن يمتثل الأمر، بل ليشعر باستعلاء الآمر عليه وتهكمه به، وبحقارة نفسه وهوانها .

وحين يعرف بوندونير السخرية " يجعل صلتها بالحجاج وثيقة إذ يعتبرها تناقض قيم حجاجية، فما يسمح بقيام جملة ما ساخرة عنده كونها حجة على فرضية ما "[2].

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، صباح عبيد دراز :٤٦ ، مطبعة الأمانة ، مصر ،ط١ ، ١٩٨٦م.

(٢) الحجاج في الشعر العربي : ١٦٤ .

والمادة اللغوية في مواقع السخرية في الخطاب القرآني تسمح بقيام فرضيتين متناقضتين، وهو ما يمكن إدراكه عبر الأمر " ذق"، فهذا الأمر قد يقوم مقام الدليل أو البرهان على تميز الذائق والمذوق، بحيث صارا في وضعية تقديم وتكريم، ذلك أن " لفظ (ذق) فيه رقة ولطف، حيث يستعمل في اختبار طعم الأشياء ذات الطعم ولكن من يقوله إنما يقوله عادة حين يكون واثقا من لذة طعم هذا الشيء، فأنت حين تريد شراء فاكهة من بائع، وتسأله عن مدى جودة طعمها لا يقول لك (ذق) إلا إذا كان واثقا من طيب طعمها"[١]

ولكن البنية اللغوية المواقعة للمقام الثاني تجعل القول حجة على هوان شأن المخاطبين وسوء المذوق، كما يبدو ذلك أوضح ما يكون في قوله تعالى :" ذق إنك أنت العزيز الكريم، فـ " حين يقولون لهذا الزعيم (ذق) فإن هذا يقتضي أن يكونوا واثقين من لذة طعم ما يقدمونه إليه، وهذه سخرية بالغة من هذا الزعيم، فإنهم يعلمون أن ما يقدمونه إليه لا يذاق أصلا، لأنه نار تتلظى، هذا فضلا عن أن ما يقدم إليه لا يقدم إليه ليذوقه فحسب، وإنما ليملأ منه جوفه " [٢].

ومن ثمّ فقد استعمل الأمر ذق عقابا نفسيا مواقعا لعقاب البدن، وذلك " لأن العرب أباة الضيم، شم الأنوف، فقد يحذرون الإهانة أكثر مما يحذرون عذاب النار، ومن الأمثال المأثورة في حكاياتهم (النار ولا العار) وفي كتاب الآداب في أعجاز أبياته " والحر يصبر خوف العار للنار"[٣] .

كما أنه فضلا عن الحجة النابعة من السخرية والإهانة التي كشفت عنها تداولية الفعل والمعنى الثاني فيه، تتبعث دلالات الفعل في مواضع العذاب تترى تلاحق الإيلام النفسي بإيلام جسدي.

---

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم ، عبد الحليم حفني : ٢٢٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.

(٢) السابق : ٢٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير : ٢٦٨/٤ .

فتوقع المهين والسيء والكريه والعصيب الأليم يصبح واقعا لا احتمالا مع الأمر (ذق) إذ يرد في مواقع العذاب، يقول الزمخشري :"أما الإذاقة عندهم فقد جرت مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر،وأذاقه العذاب،شبه ما يدرك من الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع"[١].

واختير في القرآن الكريم لفظ الذوق في العذاب، لأن ذلك وإن كان في المتعارف للقليل، فهو مستصلح للكثير، فخصه بالذكر، ليعم الأمرين"[٢].

وفي التفسير الكبير " ذوقوا استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الإدراكات فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضا طعمه ولا يدركه غير اللسان، فإدراك اللسان أتم، فإذا تأذى من نار بحرارته ومرارته إن كان الحار أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته . فإذن الذوق إدراك لمسى أتم من غيره من الملموسات فقال (ذوقوا) إشارة إلى أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات فيجتمع في العذاب شدته وإيلامه بطول-مدته ودوامه، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم "[٣].

قوله تعالى (ذوقوا العذاب) " يعني أن الإذاقة تعدت اللسان واستولت على كل الأعضاء، فكل ذرة فيه تذوق العذاب"[٤]،" ونكتته أن الذوق في العرف

---

(١) الكشاف : ٥٨٦ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ٢٦٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

(٣) التفسير الكبير : ٧٢/٢٩ .

(٤) تفسير الشعراوي : ١١٨٤٦/١٩ .

يستتبع تكرر ذلك الإحساس لأن الذوق يتبعه الأكل "[١]، وفي روح المعاني" قال الزجاج : (ذق) كلمة تقال للشيء يوئس من العفو يقال ذق ما أنت فيه أي لست بمتخلص منه" [٢].

ويرى الرازي فيه لطيفة في العذاب فيما يشير إليه الذوق من دلالة القلة "قال في العذاب (ذوقوا مس سقر، ذوقوا ما كنتم تعملون، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل الى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة" [٣].

ولا ينطلق الأمر "ذق" في الخطاب القرآني من قاعدة الأعلى والأدنى فقط، بل إن منطقية هذا الفعل في النسق القرآني، وشروعه في الاستحواذ على قسط أعلى من التأثير لا تنبني على قوته الإلزامية، ولا قدرة القائل ومصداقية وعيده، ولا الحجة القائمة في مقولته بالسلطة وحسب، بل إن سياق "ذق" يسير وفق إجراءات تؤدي إلى شحن قوته الإنجازية والتأثيرية، فمن خلال تفقد مواضع الفعل في المدونة القرآنية نجد أنه يظهر في السياق – في الوقت تماما – الذي تكتمل فيه حجج العذاب، مشفوعا ببيان علته بصورة مباشرة، وهو ما يتماشى مع منطق الميل إلى تحقيق القناعة الكاملة باستحقاق العذاب، وليس فرضه بواسطة حجة السلطة " والعادة في الحجاج ألا تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه وإنما تأتى هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنيا بحجج أخرى غير حجة السلطة"[٤].

---

[١] التحرير والتنوير : ١٨٤/٤.

[٢] روح المعاني : ١٤٢/٤.

[٣] التفسير الكبير : ١٢٢/٢٥.

[٤] في نظرية الحجاج (دراسات و تطبيقات) ، عبد الله صولة :٥٣ ، مسكيلياني للنشر ، تونس ،ط١ ،٢٠١١م .

ومبعث هذا المنهج الإقناعى أن غاية الوعيد التي تجرد لها الأمر(ذق) في الخطاب القرآني هي" الانتهاء عن المخالفة "، يقول ابن القيم الجوزية : " وأما الوعيد فهو تخويف بسوء المجازاة في المستقبل تحذيرا من الوقوع في المخالفات [١]، ويقول الرازي في قوله تعالى: " (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) " واعلم أن المقصود من هذا الكلام التخويف والزجر" [٢].

ومن ثَمَّ فقد تواترت أنواع الحجج توطئ للأمر " ذق " شاهدة على ما نسميه " انتظام المنطق الحجاجى " وتكتله لتحديد أبعاد القضية . فبرزت عدة آليات حجاجية في السياق ومنها :

أولا : الالتفات (التحول)

إذا كان السياق الأسلوبى عبارة عن النمط التعبيرى المتبع يخرقه عنصر غير متوقع ، فإن هذا يشير بالأحرى إلى هذه الأنساق الأسلوبية التي وقعت ضمن دائرة أساليب " الشجاعة العربية "، وأهمها أسلوب الالتفات الذي هو نقلة لا يقود إليها اطراد السياق وإنما تقود إليها وظائفه التداولية .

والالتفات هو " الانصراف عن معنى يكون المتكلم فيه إلى معنى آخر"[٣]، وهو لون عدول نسقي جملي يستخدم لتأدية وظائف حجاجية، منها إحداث التفاعل بين النص والقارئ، وذلك لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ، ابن قيم الجوزية : ٢٧٨/٢٧٩ ، إشراف لجنة تحقيق التراث ، مكتبة الهلال ، بيروت ، د.ت .

(٢) التفسير الكبير : ٧٩/١٤.

(٣) كتاب البديع ، عبد الله بن المعتز : ٥٨ تعليق وفهرسة إغناطيوس كراتشكوفسكي ، دار المسيرة ، ١٩٨٢م.

كان ذلك أكثر تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد .

و يضطلع الالتفات بوظيفة حجاجية ، لأن الاختلاف في الضمائر والأزمنة يضع المستمع في وسط الأحداث ويتفاعل معها بدلا من شعوره بالملل من ضمير واحد وزمن واحد، وهذا الانسجام بين المقول والمتلقي يصبح المعنى بموجبه في درجة أعلى من الحضور، ومن ثم تتصاعد وظائف الحجاج بالالتفات إلى حد تقوية الشعور بحضور الأشياء .

وهذا الأسلوب الشائع في الخطاب القرآني، ليس من شأنه وحسب أن يبني جسورا بين النص والقارئ حيث يدفع عنه السآمة والملل أو يقوي شعوره بحضور الأشياء، بل إنه يجعله في درجة قصوى من ترقب " دلالة ما " ينوه عنها السياق بالانحراف يقتحم بها المجال التداولي، فالالتفات في قوله تعالى :" وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ" [الأنعام:٣٥] أريد به " بلوغ التشديد [١]، وفي قوله تعالى " وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ" [القمر: ٣٧ :٣٩]. حيث أخبر عنهم بالغياب وأوعدهم بالخطاب " تشديدا وتقريعا " [٢]. وأشباه النصين كثر في مدونة القرآن، وفي خطاب القيامة خاصة .

وعلى مستوى العدول الزمني، بالانتقال فيه من المستقبل إلى الماضي قيمة حجاجية خاصة هي " اعتبار الشيء مدار الالتفات كأنه قد تحقق وقضي

---

[١] الميزان : ٧٤/٩ .

[٢] التفسير الكبير :٨٣/١٩ ، ومن هذا المنطلق يصبح من وظائف الالتفات الحجاجية " التشنيع على الخصوم وإشهاد السامعين والقراء على فساد صنيعهم " الحجاج في القرآن ٤٥٨.

الأمر"[١]، ومن ثم فالالتفات بهذه الكيفية يحمل دلالة التأكيد على الفعل وحدوثه . يقول ابن الأثير :" فائدته أن الفعل الماضي إذا اخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها "[٢].

" وبهذا نرى أن الزمن وظيفة في السياق لا ترتبط بصيغة صرفية معينة وإنما تختار الصيغة التي تتوافر لها القرائن التي تساعد على تحميلها معنى الزمن المعين المراد من السياق" [٣].

هذا التحول الزمني يكشف عن تصادم الأزمنة على مستوى بنية السطح مما يدفع المتلقي إلى الانتباه والتفاعل مع النص، ومحاولة إعادة التوافق بين صيغ الأفعال وأزمنتها في بنية العمق.

وقد سيقت لذلك مشاهد الحساب والعذاب في الخطاب القرآني مساق الأمر على كونه وقع وتحقق بالفعل، ومنه قوله تعالى :" وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ " [الأنعام:٣٠]، فأجرى الحدث فيه على المضي " والمعنى به

---

[١] الحجاج في القرآن : ٧٥٧.

[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير :١٩٩/٢ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، بيروت ،١٩٩٠م.

[٣] إرشاد الفحول ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني : ١٦٩ ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط١ ، د.ت .

الاستقبال... وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه بصدوره عمن لا خلاف في خبره "[١].

فإخراج الكلام في صيغة الماضي خلافا لمقتضى الظاهر، هو لون تأكيد، فائدته تحقق الفعل كأنه مضى ووقع، وهو ما يضمن أعلى درجات الإنجاز والتأثير المفضي إلى الاستجابة، التي هي مرام الحجاج الأعلى .

ثانيا : الاستفهام

أسلوب الاستفهام هو أسلوب لغوي من أساليب السؤال يهدف إلى طلب الإفهام تصورا أو تصديقا [٢] ، وتقتضي صيغته بديهة أن يتقرر بشأنها رد إما بواسطة المستفهم ذاته أو من خلال غيره، ولذا فإنه إطار للمحاورة، ينتج عنه لون من العصف الذهني، بما ينطوي عليه من إثارة ذهن المخاطب .

والتوجيه الاستفهامي ذو قيمة خطابية جليلة إذ يفترض السؤال شيئا تعلق به ذلك السؤال ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء . ويكثر في الخطاب القرآني هذا اللون من الاستفهام الذي هو " ليس استخبارا وطلب جواب بل هو وسيلة حجاج "[٣]، فهو نسق عدول جدولي من الخبر إلى الإنشاء، ورد في صورة استفهام ليؤدي عدة مهام في بناء الخطاب، لعل من أهمها مقاسمة المخاطب في بناء الخطاب وتوجيهه، نظرا لما يوفره من إقحام المخاطب في عملية استدلالية، يغدو فيها طرفا في إنتاج الحجة وأحد الخاضعين لها في الوقت ذاته " وأبلغ الحجج وأشدها إلزاما للخصم وأكثرها إفحاما له ما نطق بها هو نفسه وأسهم في صنعها من خلال إجابته عن

---

[١] التحرير والتنوير : ٣٠/٧.

[٢] الاستفهام في اللغة هو طلب الفهم ،وفي النحو هو أسلوب يطلب به العلم بشيء مجهول

[٣] الحجاج في القرآن : ٤٢٥.

الاستفهام الموجه إليه "[١] . فعلى هذا يعد أسلوب الاستفهام لون استدراج وخطة إيقاع بالمتلقي تدفعه إلى الاقتناع بما هو معرض خصومة ومثار إشكال

وفي مشاهد القيامة التي ورد فيها الأمر " ذوقوا " استخدم الاستفهام حجة للقضاء بالعذاب، حيث جعلت الإجابة عن السؤال أحيانا وإضمارها بما يفصح عنه السياق أحيانا، منطلق الإقرار بمنطقية العذاب واستحقاقه، إضافة إلى غاية أخرى أبعد استعمل الاستفهام لأجلها، وهي المصادقة على القضية الأساسية في الآية وهي قضية البعث والحساب والتي تعد المصادقة عليها مصادقة على قضية الألوهية والتوحيد .

ففي سورة الأنعام يقول تعالى " وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ "[آية:٣٠] .

قوله تعالى :" أليس هذا بالحق " هو لون استفهام تقرير حيث يصبح " الاستفهام هنا هو الحجج ذاتها، كما أنه فعل حجاجي بالقصد المضمر فيه، وفق ما يقتضيه السياق"[٢]، (أليس هذا بالحق ؟) يعني : أليس البعث والعذاب بالحق ؟ (قالوا بلى وربنا)،إنه حق، الإشارة إلى البعث الذي عاينوه وشاهدوه . والاستفهام تقرير دخل على نفي الأمر المقرر به لاختبار مقدار إقرار المسئول، فلذلك يسأل عن نفي ما هو واقع لأنه إن كُانَ له مطمع في الإنكار تذرع إليه بالنفي الواقع في سؤال المقرر. والمقصود : أهذا حق، فإنهم كانوا يزعمونه باطلا . ولذلك أجابوا بالحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو "بلى" ... وأكدوا ذلك بالقسم تحقيقا لاعترافهم للمعترف به لأنه معلوم لله تعالى، أي نقر ولا نشك فيه فلذلك نقسم عليه" [٣] .

---

[١] السابق : ٤٢٩.

[٢] استراتيجيات الخطاب :٤ .

[٣] التحرير والتنوير : ٧ /٢٨٧.

الاستفهام من هذا النوع تبدو حجته من جهة أخرى في انفتاحه على السياق وفي تحويله الكلام إلى الحوار الباعث لعنصر المشاهدة، وفي تفسير الظلال لقوله تعالى :" وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ " [الأحقاف:٣٤]، " المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض : "أليس هذا بالحق ؟" ..."بلى . وربنا" ... فالمواجهة حاسمة، ولا مجال لأخذ ولا رد . لقد كانوا ينكرون . فالآن يعترفون . والآن يذوقون"[١] .

الإنشاء بالاستفهام من هذا النوع يحتج لما لا يستطيع أن يحتج له الخبر، فقوله تعالى :" أليس هذا بالحق ؟" أبلغ في الحجة من قوله :" هذا حق " لأن الإخبار لا يجاوز وصف الأمر وتقريره، بينما يقود الاستفهام المخاطب راغما إلى جواب، خاصة حال دخول الأداة على النفي، كما أن التحول عن الخبر إلى الإنشاء ينقل المحتوى الكلامي من احتمال أن يكون صادقا أو كاذبا إلى عدم الخضوع لذلك .

يبقى جزء من الحجاج فيما قصده الخطاب من دلالة التداول، فالاستفهام "أليس هذا بالحق ؟" هو فعل كلامي حجاجي بالمضمر فيه من القصد وهو " التنديم"[٢]، و " التهكم بهم والتقريع على استهزائهم بوعد الله ووعيده "[٣]، فالاستفهام فيه " إنكار واخزاء وإذلال"[٤]، وهذا " المعنى الثاني الزائد على

---

(١) ظلال القرآن : ٣٢٧٥/٢٦ .

(٢) التحرير والتنوير : ٦٦/٢٦ .

(٣) الأساس :٣٤/٢٨ .

(٤) نظم الدرر : ٨٨/٧ .

أصل المعنى المستفاد من الاستفهام هو الذي يعمق درجة الإقناع بالنتيجة التي يتوجه اليها الملفوظ "[١] .

ثالثا : الحوار

الحوار كما يعرفه موشلر هو نوع من التفاعل اللفظي، يلزم فيه المتخاطبون بأن يجادلوا وأن يسجلوا نقاطا على بعضهم البعض وأن يفاوضوا للوصول أو عدم الوصول إلى حلول"[٢]. والمحاورات هي المجال المثالي لاشتغال الحجاج، حيث ينشط الحجاج بشكل بارز على صعيد بنيتي: المداخلة والمبادلة في المحاورة "[٣]. فالحوار ممارسة تخاطبيه (تفاعلية) تقوم بين ذوات متكلمة وأخرى مستمعة، وهو صراع عقلي، وخصومة منطقية .

ويوظف الخطاب القرآني الحوار لنقل المعاني المجردة ضعيفة التأثير، سريعة الانمحاء من النفوس إلى تجسيدها وصبها في صور وقوالب محسوسة. لإثارة اهتمام المخاطب بصورة أشد، ولترسيخ المعنى وتثبيته في النفوس .

فالله العليم الخبير بتكوين الإنسان وطبيعته، يريد أن يأتيه من كل جوانبه وزواياه، حتى لا تكون له أدنى حجة، بل يكون هذا زيادة في إلزامه بالحجة" [٤] .

ويتميز الحوار في مشاهد القيامة خاصة بقدرته على تحويل الخطاب عبر صيغة المنقول المباشر إلى المشهدية والواقعية التي تمحو حاجز الزمن بين

---

[١] في نظرية الحجاج : ٩٩ .

[٢] بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل : ١٠٩، ١١٠، ط٢ ، ٢٠١٣م.

[٣] السابق : ١١٤ .

[٤] أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ، عبد الحليم حفني : ٤٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٣ ١٩٩٥م.

الخطاب والواقع الآني، حيث يتظاهر السارد بإعطاء الكلمة حرفيا لشخصياته، فنشهد ونسمع نص حوار تلك الشخصيات كما هو في الواقع .

والخطاب القرآني حريص في نقله لمشاهد لقيامة على تحميلها بهذه الحالة من المعاينة والرؤية التي على مستوى الحجاج، تضمن -على الأقل – أعلى درجات التفاعل والانفعال بالموقف .

هذا الحرص على نقل المشاهد يتبدى في استهلال الحوار، بمفردات قرآنية خاصة مثل " ولو ترى " التي توجه للمخاطبين بصفة عامة، فتعمل على نقل المشهد وإثارة دلالات " التشهير بحال المشركين يوم المحشر، وأن حالتهم في ذلك اليوم من تنكيس الرؤوس ، ورثاثة الهيئة، واسوداد الوجه، وغير ذلك من سمات الخزي والخذلان، قد بلغت من الظهور لأهل الجمع كلهم إلى درجة يمتنع خفاؤها"[1].

هذا النقل وتلك المشاهدة تبدو في مثل قوله تعالى " وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ "[الأنعام:٣٠]، يقول ابن عاشور :" وتعليق (على ربهم) بـ(وقفوا) تمثيل لحضورهم المحشر عند البعث . شبهت حالهم في الحضور للحساب بحال عبد جني فقبض عليه فوقف بين يدي ربه" [2]، فـ" هذا مصير الذين قالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين" .. وهذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين، وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلقائه، لا يبرحون الموقف . وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب : قال : أليس هذا بالحق؟".. وهو سؤال يخزي ويذيب ! " قالوا : بلى

---

[1] أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة) ، عبد الفتاح لاشين : ٩٧ ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ١٩٨٣م.

[2] التحرير والتنوير :٧ / ١٨٧.

وربنا " .. الآن وهم موقوفون على ربهم . في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون . و في اختصار يناسب جلال الموقف، ورهبة المشهد، وهول المصير، يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير :" قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " [١] .

مثل هذه الحوارات أريد بها إقامة الحجة على الكافرين، والاعتراف باستحقاقهم العذاب [٢]، بما تعكسه آيات من مثل قوله تعالى : " وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ " [فاطر :٣٧]

" ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل " .. إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان . فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي : " أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟" .. فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .(وجاءكم النذير)

---

[١] في ظلال القرآن : ١٠٧١/٧.

[٢] " وتركز حوارات مشاهد القيامة في القرآن على مضامين أربعة أساسية هي : توحيد الله ونفي الشركة ، وإقامة الحجة على الكافرين، ودفعهم للاعتراف باستحقاقهم العذاب ، وتخلي المتبوعين عن أتباعهم ، وتمني الكافرين الرجوع إلى الدنيا " الحوار في مشاهد القيامة في القرآن الكريم (دراسة دلالية بيانية)، هالا سعيد محمد مقبل (رسالة ماجستير) كلية الآداب والعلوم (قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط ، عمان ، الأردن ،٢٠١٠/٢٠١١م.

.. زيادة في التنبيه والتحذير . فلم يتذكروا ولم يحذروا . " فذوقوا . فما للظالمين من نصير" [١] .

رابعا : علاقات التعليل

العلاقة السببية من أبرز العلاقات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقي، وهي ضرب مخصوص من العلاقات التتابعية إذ يحرص المتكلم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحق عادي بينها ... بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة، فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى، ويسم فعلا ما بأنه نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق ... فإذا بالعلاقة السببية علاقة شبه منطقية"[٢].

ومبنى التعليل يكون على العلم بالمعلل، فالعلة تختص بالدلالة على ما يتوقف عليه وجود شيء بالوجه الذي وجد به، فغاية التعليل تفسير الشيء" [٣].

يدرجه بعضهم في القمة من قائمة الوظائف الحجاجية للغة فيقول :" فالتعليل هو الوظيفة الأساسية للحجج وما عاداه من استعمالات ووظائف ثانوى ومشوش" [٤]

وهو من الطرق الاستدلالية التي اعتمدها الخطاب القرآني، " وإنما يستخدم التعليل ويطلب من أجل التفسير لبيان تبعية الحكم لعلته، وترابطهما في الذهن وفي الواقع، بحيث لا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، فلا علة إلا باعتبار أن لها معلولا، ولا معلول إلا باعتبار أن له علة، وتبعا لذلك

---

[١] في ظلال القرآن : ٢٢/٢٩٤٥.

[٢] الحجاج في الشعر العربي : ٣٢٧ .

[٣] اللسان والميزان : ١٣٤ .

[٤] النظرية الحجاجية ، محمد طروس :٦١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط١ .

يمكن القول إن الحكم من حيث هو إسناد وصف إلى موصوف، هو دائما في حاجة إلى مبرر يجعل الحكم مقبولا لدى من يتوجه إليه الحكم"[١].

يقول الزركشي " إن ذكر الشيء معللا أبلغ من ذكره بلا علة، لوجهين

أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المدلول .

والثانى : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها "[٢]

ويقول ابن مالك " فان إثبات الحكم بذكر علته أروج في العقل من إثباته بمجرد دعواه "[٣]

إن ربط الأمور بمقدمتها في الخطاب القرآني هو تناسق يتواجد بين الحقائق، يعبر عنه بمبدأ العلية، أو قانون السببية، والذي عده التفكير البشري من الوسائل الموصلة إلى الاهتداء إلى الكثير من الحقائق التي ساعدته على اكتساب المعارف والعلوم"[٤]

وفي مشاهد القيامة حيث يرد الأمر " ذوقوا " مؤذنا بالعقاب، يعقب الفعل ذكر علة العذاب التي تتلوه بصورة مباشرة، وغالبا ما يؤديها النص بباء السببية، يقول الرازي في تفسير قوله تعالى " هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ " [يونس من الآية : ٥٢] " إنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه

---

(١) المنطق الفطري في القرآن الكريم ، محمود يعقوبي :٩٥ ، دار العربي ، الجزائر ط١ ،٢٠١٢م.

(٢) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي :١٠٤/٣ ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م.

(٣) المصباح ، بدر الدين بن مالك ، تحقيق حسني عبد الجليل يوسف:٢٤١ مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٨٩ م.

(٤) الجدل في القرآن الكريم (فعاليته في بناء العقلية الإسلامية) ، محمد التومي :٢١٥ ، ٢١٦ د.ط ، د.ن ، شراة ، الشهاب ، الجزائر .

العلة . كأن سائلا يسأل ويقول : يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد، فكأنه تعالى يقول :" أنا ما عاملته بهذه المعاملة ابتداء بل هذا وصل إليه جزاء على عمله الباطل . وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب . وجانب العذاب مرجوح مغلوب"[١]، فذكر علة العذاب إذن أليق ببيان منطقيته، فهي حجة على المعذبين، وحجة لبيان رحمة الله المعاقب تبرز مباشرة بعد الأمر بالعذاب .

وقد تذكر العلة دون ذكر أدواتها، يقول تعالى : " ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " [العنكبوت من الآية: ٥٥]، " ما كنتم تعملون جزاؤه لأن الجزاء لما كان بقدر المجزى أطلق عليه اسمه مجازا مرسلا أو مجازا بالحذف[٢]،" وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن عملهم كان سببا لجعل الله إياه سببا لعذابهم"[٣] .

يدعم حجية العذاب صيغة السبب من مثل قوله : " بما كنتم تعملون " حيث يستخدم ماضي الناسخ كان، ثم المضارع، بما يدل عليه المضارع من الاستمرار والتجدد، " (بما كنتم تعملون) فقال : (بما كنتم) أي جبلة وطبعا (تعملون) من أعمال من لم يخف أمر البعث ناوين أنكم لا تنفكون عن ذلك"[٤]، " (ما كنتم تكنزون) أي تجددون جمعه على سبيل الاستمرار حريصين عليه، وأشار بفعل الكون إلى أنهم مجبلون على ذلك"[٥]، وذكر

---

(١) التفسير الكبير :١١٥/١٧.

(٢) التحرير والتنوير :١٩/٢١ .

(٣) التفسير الكبير : ٨٣/١٥ .

(٤) نظم الدرر : ٢٥٣/١٥.

(٥) السابق : ٤٤٨/٨ .

المضارع هنا هو لون حجاج بالصيغة الدالة على حضور صورهم، وحكاية حالهم، وهو ما من شأنه أن يدعم علة العذاب .

كما أن من ألوان ذكر العلة وصف أصحابها، فهم " الذين كفروا " أو " الذين ظلموا " أو " الذين فسقوا " أو" المجرمون "، وهذه الأوصاف هي عدول عن أصل العلة وهي" الإشراك "، حيث عدل إليها الخطاب القرآني عدولا منظما منسجما مع دلالات السياق، متكئا على حضور الدلالة فيها وما تؤديه من دور حجاجي، فـ"هذه الصفات تجعل خصوم القرآن من المشركين مسجونين داخل وضع ذهني معين يفيده مقتضى هذه الصفات أو معظمها والخصيصة التقويمية التي من شأنها أن تجعل الخصوم الذين أطلقت عليهم هذه الصفات في وضع ضرورة يلزم عنه أنهم محجوجون" [١].

والمتابع لمناطق إيراد هذه الصفات في الخطاب القرآني يجدها ترد خاصة في المواضع التي تنتهي بذكر المصير البئيس الذي ينتظر الموصوفين بها، وذلك لإسباغ سمة المنطقية على هذا المآل حيث " كان لها الفضل في أن بسطت السبب الذي من أجله توعد القرآن خصومه بالعذاب في الآخرة، يقول ابن عاشور في قوله تعالى :" الذين كفروا " إنه " إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر، أي يقال لهم ذلك لأنهم كفروا"[٢].

التوطئة بذكر هذه الصفات كانت في كثير من السياقات تتجاوز بيان العلة إلى تحديد نوع العذاب الذي يذوقه المعذب كما وكيفا، وقد تساءل بعضهم عن علة اختلاف نوع العذاب في سورتي الحج والسجدة، ففي سورة الحج " كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ " [آية :٢٢]،وفي سورة السجدة " وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا

---

[١] الحجاج في القرآن :١٩٢ .

[٢] التحرير والتنوير : ٦٦/٢٦ .

مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ " [آية :٢٠]، ذلك أن" آية الحج قيلت في الكافرين، قال تعالى : (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ...) وآية السجدة قيلت في الفاسقين، قال تعالى : (أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) . والفسق قد يطلق على ما دون الكفر وقد يطلق على الكفر، فلما صرح بالكفر في سورة الحج كان العذاب أشد فقال : (وذوقوا عذاب الحريق) والحريق هو النار البالغة في الإحراق"[1].

الصيغة الرابعة (أذاق)

وردت صيغة الماضى المزيد (أذاق) في عشرة آيات قرآنية' وهي الآيات من قوله تعالى :

١. فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ [النحل:١١٢]

٢. ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [الروم:٣٣]

٣. فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ [الزمر:٢٦]

٤. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا [يونس:٢١]

٥. وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ [هود:٩]

٦. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا [الروم:٣٦]

٧. وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا [الشورى:٤٨]

٨. إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ [الإسراء:٧٥]

٩. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [هود:١٠]

١٠. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي [فصلت:٥٠]

وجميعها آيات لسور مكية، عدا الآية من سورة الإسراء التي وردت في مقام تحذير رسول الله . و من بين هذه الآيات العشرة، هناك سبع آيات مكية تقارب بناؤها، وتشابهت، واتفقت في مجمل معانيها واختلفت تفصيلاتها، أما

---

[1] التعبير القرآني : ٢٧٣.

الجامع العام بينها فكونها جميعا " صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة، ولا تسير على نهج واضح . صورة لها وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة، والتصورات العارضة، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات "[١]، هي " تصوير نفوس البشر في السراء والضراء وعند قبض الرزق وبسطه، وهي تضطرب في تقديراتها وتصوراتها" [٢] . ويمكن إدراك وجوه الحجاج في هذه الآيات فيما يلي :

أولا :

حجة أولية أقامها الفعل "أذاق" بصيغته الصرفية، حيث أدت الزيادة في مبناه إلى زيادة في معناه – تبعا للقاعدة الصرفية العامة – فمن شأن زيادة الهمزة في مبنى " فعل " أن تغير بنيته النحوية، ومن ثم الدلالية، فتحول المعانى في السياق، يقول ابن السراج :" وحق هذه الهمزة إذا دخلت على فعل لا زيادة فيه أن تجعل الفاعل مفعولا نحو قام وأقمته" [٣]، وهي تعمل على تعدية الفعل وتفيد معنى الجعل مثل أطردته : جعلته طريدا، وأن تجعله صاحب الشيء مثل أقبرته جعلت له قبرا، والدعاء، مثل أسقيته دعوت له بالسقيا، والتعريض مثل أقتلته عرضته للقتل"[٤].

---

[١] في ظلال القرآن : ٢٧٧٠/٢١ .

[٢] السابق: ٢٧٧٠/٢١.

[٣] الأصول في النحو : أبو بكر محمد بن سهل السراج :١١٨/٣ ، تحقيق د عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة .

[٤] الممتع في التصريف : ابن عصفور الإشبيلي:١٨٦/١ ،١٨٧، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ط١٩٧٩،٤م.

تقدم الهمزة على فعلها في " أذقنا " فيه إسفار عن فاعل الإذاقة، وبيان لدوره مرتبط بالذوق، مقدم عليه، تدعم هذه الفاعلية، البنية الإحالية (ضمير المتكلم الجمع الدال على الذات الإلهية) في "أذقنا"، حيث تتضمن الأفعال المسندة إلى ضمير المتكلم الجمع في القرآن الكريم دلالات ينسبها الخالق لنفسه في صيغة مؤكدة ترد شك المشككين والمتشككين .

والتعبير بضمير المتكلم الجمعي هو في ذاته "مظهر حجاجي دون شك إذ إن لضمير المتكلم الجمع المستخدم للواحد مقتضى براغماتيا هو أيضا يحدد نوع العلاقة القائمة بين المتكلم "هنا الله " ومتلقي كلامه بحيث تكون دلالة ذلك على التنبيه على علو منزلة الأول وتواضع منزلة الثاني مما يدخل بوجه من الوجوه في باب المحاجة ويعد من وسائل الإقناع في بعض المقامات" [١].
والعنصر الإحالي في أذقنا إذ يشير إلى عنصر معجمي لاحق هو "الإنسان" أو " الناس"، فإنه يدعم في الوقت ذاته ما وردت من أجله الهمزة في أذقنا وهو (قوة الفاعلية والمبادرة في العطاء).

يعاضد توجيه الصيغة، توجيه "دلالة التبادر " لمادة ذوق في اقترانها بالرحمة (أو النعماء)، فوجه من وجوه الدلالة في " أذقنا الإنسان رحمة " الإيماء إلى التذاذهم بالرحمة، حيث " أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وأنها مذوقة لهم، والذوق أخص أنواع الملابسة وأشدها "[٢]، وهذه المعطيات والدلالات قصد منها تحقيق أعلى درجات اللطف

---

[١] الحجاج في القرآن : ١٠٨ .

[٢] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ، عبد الفتاح لاشين : ٥٦، دار الرائد العربي ، ١٩٨٢م.

الرباني في العطاء يقول الرازي في "أذقنا الناس رحمة " " كلام ورد على سبيل المبالغة والمراد منه إيصال الرحمة إليهم "[١].

فالفعل الكلامي " أذقنا الإنسان رحمة " بورده المتواتر قبل مس الضر أو إصابة السيئة، وما ينجزه في بعض دلالاته، هو مقدمة غايتها إقامة حجة لصالح نتيجة تنسجم مع تلك المقدمة وهي : اقتضاء ووجوب شكر المنعم الذي بالغ في عطائه – باعتبار صاحب العطاء وقدره ونوعه– وهو ما قوبل بالنقيض الذي يدعم دلالته فعل الذوق ذاته، فورود فعل الذوق في الآيات لما يفيد معنى " أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران . فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدر خير قليل . ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين فهذه الإذاقة قليل من قليل"[٢]، كما أن من دلالات الذوق فيه " بيان أن نعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سماها ذوقا فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير اليى حصل في الدنيا فإنه يفرح به ويعظم غروره بسببه ويقع في العجب والكبر" [٣].

ثانيا:

استخدم أداة الشرط في الآيات هو في ذاته قيمة حجاجية، وآلية منطقية، حيث تؤدى أداة الشرط دورا بارزا في ربط جملتي الشرط والجواب ربطا دلاليا تلقائيا، تارة بتعليق الحجة القائمة في جواب الشرط بالمقدمة التي

---

(١) التفسير الكبير:١٧/٦٩.

(٢) التفسير الكبير:١٩٩،١٩٨.

(٣) السابق:٢٧/١٨٥.

تحتويها جملة فعله بعلاقة تلازم، وتارة بتقديم الحجة الناشئة من التعالق الدلالي لجملتي الشرط والجواب وصولا إلى نتيجة يحتملها سياق الحال .

على أن إدراك دلالة أدوات الشرط، وتبين جملة الوظائف المنوطة بها تلك الأدوات هو ما يمثل في ذاته طاقة تحدد معالم الحجاج . ومن مراجعة الدلالة لأداتي الشرط : (إذا) و(إن) في الآيات – موضع الدراسة – نجد أن الأداتين وإن اتفقتا في وظيفة التعليق الشرطي إلا أنهما تباينتا في الدلالة، فالأصل في (إذا) أنها تستخدم فيما علم أنه كائن، و(إن) فيما يترجح أن يكون أو لا يكون، يقول السكاكي :" أما (إن) فهي للشرط في الاستقبال، والأصل فيها الخلو عن الجزم لوقوع الشرط ... و(إذا) للشرط في الاستقبال ... والأصل فيها القطع بوقوع الشرط ... وهو النكتة في تغليب لفظ الماضي معه على المستقبل في الاستعمال، لكون الماضي أقرب إلى القطع من المستقبل في الجملة نظرا إلى اللفظ "[1].

وفي مجمل الآيات – موضع الدراسة – استخدمت (إذا) في إيصال الرحمة، بما يدل على تحقق الوقوع وكثرته، واستخدمت (إن) في إصابة السيئة، بما يدل على احتمال الوقوع وقلته، وقد أتى في باب الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق، هذا إلى جانب ما تضيفه عناصر لغوية عديدة داخل سياق اللغة مما يكشف مقدار رحمة الله حتى في باب إصابة الضر .

---

[1] مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي : ٢٤٠-٢٤١،ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٧ . وحري بالذكر أن وضعية الحجاج وغايته تختلف يتناوب دلالة الآيتين عن المعهود في النسق القرآني ، حين تستعمل كل منهما في موضع الأخرى.

خلق هذا الاستخدام مقتضى منطقي هو اتساع رحمة الله بعباده واستحقاقه للإقرار بفضله، ومقابلة إحسانه بما يليق، فكان توجيه الدلالة عبر الأداتين(إذا) و(إن) تنبيها وتذكيرا بمنن المنعم مناشدة للعواطف، وقيادة للعقل، وتوجيها للأمثل . ليتمثل دور الحجاج في توجيه المتقبل نحو نوع معين من النتائج .

ثالثا

تطرح الآيات في غضون علاقة اقتضاء تؤسسها جملة الشرط، وعلاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية لأنها تتميز بالإضافة إلى الوصل بين الحجة والنتيجة المرصودة بأنها تجعل الحجة تقتضي تلك النتيجة اقتضاء مبعثه التلازم بين الحجة والنتيجة، إذ يلزم بثبوت التالي عند ثبوت المقدم .

فالشرط أسلوب لغوي يبنى بالتحليل العقلي على جزئين لا يستقل أحدهما عن الأخر، الأول بمنزلة السبب، والثانى بمنزلة المسبب ولا يتحقق الثاني إلا إذا تحقق الأول، ومن ثم فالعلاقة في الجمل الشرطية هي علاقة استلزام حتمي منطقي .

والربط بين المقدمة والنتيجة بالانتقال من إحداهما إلى الأخرى في تسلسل معين وباستعمال أدوات لغوية معينة، هو ما يسميه (بيرلمان وزميله) بالحجة التداولية، وهى الحجة التي تمنح فرصة التقويم لعمل ما أو حدث، وذلك بالنظر إلى تتابعاتها المرغوبة أو غير المرغوبة، ولا يقتصر دورها على ذلك بل يتجاوز المرسل بها إلى توجيه السلوك والفعل المستقبلي . ولأسلوب الشرط أهمية لا تنكر لاحتوائه على عنصر المفاجأة فضلا عن التنبيه، وهذا من ضروريات الإقناع . وتنقسم الآيات، موضع الدراسة، فيما يتصل ببنيتها الشرطية إلى قسمين :

(١) قسم يحتوي جملة شرط واحدة .

(٢) قسم يحتوي جملتي شرط.

فمن القسم الأول، قوله تعالى " وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ " [يونس:٢١]. والحجة الأولى فيها " أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم " والثانية " إذا لهم مكر في آياتنا ". والحجة الثانية مبنية على الحجة الأولى وتربطهما علاقة عكس، فالنتيجة المحققة من جواب الشرط منافية لاطراد الحال، مخالفة للمقتضى في جملة الشرط، لأن مقتضى جملة الشرط هو " شكر المنعم وتمجيده "، كما تكشف عنه الدلالة المعنوية في الآية .

وجملة الألفاظ المنتقاة تسير في وجهة حجاجية موافقة للمقتضى، من مثل : إذا الشرطية، صيغة الإذاقة، لفظ (رحمة)، قوله " من بعد " وقوله " ضراء مستهم "، و"إذا" الفجائية . وفي لفظي الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمس مبتدأ الوصول" [1]، فالإذاقة والمس –على ذلك– كلاهما دال على قليل النيل ويسيره .

أما القسم الثاني الذي احتوى جملتي شرط فمثاله ما ورد في قوله تعالى:" و لئن أذقنا الأنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . و لئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور"، و قد بنيت الآيتان على أسلوبية التقابل . حيث يسلك القرآن في بعض استدلالاته طريقة تعرف بالمقابلة، وهي عبارة عن مقارنة بين قضيتين لمعرفة أيهما المؤثر في الآخر، ويدخل في إطارها المعارضة بين الشيئين وهي مقابلة الشيء بما يخالفه وهذا النوع من مقابلة الجملة الشرطية للجملة أختها بمجيء

---

[1] تفسير البيضاوي : ١٢٩/٣.

وفي التحرير والتنوير " المس مجاز في الإصابة ، لأن حقيقة المس وضع اليد على الجسم ، فاستعمل في الإصابة بجامع الاتصال " ٢٨٤/٦ .

إحداهما معطوفة على الأخرى مقابلة من أبرز المقابلات القرآنية "[١]، وترتبط بالعمليات العقلية للخروج بنتيجة، ثم تترك أثرها واضحا على المتلقي .

ويقوم التقابل بصورة مطلقة في آيات الابتلاء بالخير والشر، على قيمة أن كليهما ابتلاء غايته تحقيق النظر إلى حقيقة أن يكون الإنسان أكثر صلابة وأشد تمسكا بدينه، وأكثر وفاء وشكرا للمنعم، في إطار سياق شرطي تقابلي " يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذي يعارض ويعاند، ويعرض نفسه للأذى والعذاب، وهو لا يحتمل في نفسه الأذى، وهو رقيق الاحتمال، يستطار بالنعمة، ويجزع من الشدة، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق "[٢] .

رابعا

أدت اللفظتان" الإنسان " و " الناس الواردتان في الآيات دورا حجاجيا أسست له صيغة اسم الجنس من ناحية، ودلالة الاستعمال والتداول من ناحية أخرى، حيث تكتسب الكلمتان دلالتهما الحجاجية، على صعيد التداول، ليس من تضافر المقام والمقال وحسب، بل أيضا من دورانهما في القرآن .

فمن حيث الصيغة، فقد جنحت اللفظتان، في المدونة القرآنية، إلى العموم والاستغراق بفعل التعريف بـ"أل" فالتعريف فيهما " تعريف الجنس المراد به الاستغراق ... ويجوز أن يكون المراد كل إنسان إذا حل به مثل ذلك على تفاوت في الناس، وعلى الرغم من محاولة كثير من المفسرين تعليق كلمتى " الإنسان " و " الناس " بمواقف بذاتها أوأشخاص بعينهم (تبعا لأسباب النزول) إلا أن الخطاب القرآني باستخدامه للكلمتين معرفتين، أخرج الخصوص إلى دائرة العموم، وهو عموم مشخص من اللفظ ذاته، يستغرق جنس الإنسان دفعة واحدة، حيث يعرف الزمخشري اسم الجنس بقوله :"هو ما

---

[١] الحجاج في القرآن :٣٨٣ .

[٢] في ظلال القرآن : ٢٥ /٣١٦٩

علق على شيء وعلى كل ما أشبهه "[١]، وفيه يقول ابن يعيش :" أن يكون الاسم بإزاء حقيقة شاملة "[٢]، فـ[أل] في الإنسان مراد بها جميع الأفراد التي يتناولها لفظ الإنسان لغة، أي كل إنسان"[٣].

عدول الخطاب القرآني عن اسم العلم إلى اسم الجنس، والخروج بالدلالة من ضيق الخصوص إلى فضاء العموم، فيه ما يحقق كون المطروح على المخاطب حقيقة قائمة غير متغيرة، قادر على إثبات حضورها بغض النظر عما يعتري الخليقة والمخلوقات من أسباب ودواعي التغيير، ومن ثم فالحجة في ذلك قائمة على السلطة بقدرة الألفاظ على تجاوز حدود الزمان والمكان ومقام الحال، وهو ما خلق " مدى حجاجيا أوسع من شأنه أن يجعل الكلام الوارد في الآية المذكورة مثلا مرسلا يتمثل في المقامات المشابهة على سبيل توضيح الفكرة والإقناع بوجهة النظر "[٤].

بينما يعكس النص القرآني تباينا بين اللفظتين، في مواضع الاستخدام، يؤسس لحجاج خاص لكل منهما، على الرغم من الترادف الذي يضرب بجذوره في لفظتي الإنسان والناس، ومنشؤه أصل المادة، وكون أحدهما بسبب من الآخر . وفي المقاييس :" أنس " الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش . قالوا : " الإنس

---

(١) المفصل في علم العربية ، الزمخشري : ٦ ، ط١ ، مطبعة التقدم ، القاهرة .

(٢) شرح المفصل للزمخشري ، موفق الدين أبو البقاء بن بعيش الموصلي ، تحقيق : إميل بديع يعقوب : ٢٩/١ ، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

(٣) من أسرار التعبير القرآني : ٢١٠.

(٤) الحجاج في القرآن : ٢١٠ .

خلاف الجن، وسموا لظهورهم "[١]، وفي لسان العرب " الإنسان : معروف ... والجمع الناس ... وروي عن ابن عباس، رضي الله عنه، أنه قال : " إنما سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسي"[٢]، فـ"الإنسان" : واحد الناس، والجمع : ناس وأناس .

أما لفظ الناس، فيأتي في النص القرآني نحو مأتين وأربعين مرة، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، أو هذا النوع من الكائنات في عمومه المطلق : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ [الحجرات:١٣]. أما الإنس والإنسان، فيجمع بينهما ملحظ مشترك من الأصل اللغوي لمادة " أ ن س " في دلالتهما على نقيض التوحش، ثم تختص كل من اللفظتين في البيان القرآني، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك[٣] .

أما لفظة إنسان فترد في سياقها بكونها حدث دال، فـ"تلاحظ أن القرآن الكريم إذا تكلم عن الإنسان فقط، فدائما يكون الخبر عنه من جنس الشر ... ولا ينجو الإنسان من خبر الشر إلا إذا استثني"[٤]. وقد ثبت بجلاء أن مفردة "الإنسان" عند ذكرها في كتاب الله تأتي في سياق الكشف عن الضعف البشرى في جانبى الخلقة والخلق، ووفق ذلك فقد صارت لكلمة "إنسان" خصائص في ذاتها تستمدها من اللغة، وخصائص خاصة تستمدها عبر التداول تجعلها

---

[١] المقاييس : ١/١٤٥.

[٢] لسان العرب: مادة أنس.

[٣] مقال في الإنسان (دراسة قرآنية)، عائشة عبد الرحمن : ١٤ ، دار المعارف.

[٤] من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة)، عبد الفتاح لاشين :١٠١ ،١٠٢، دار المريخ للنشر، الرياض ،١٩٨٣م.

مؤهلة بطبيعتها لتكون ذات صبغة حجاجية، وتؤهلها لولوج معجم الخطاب الحجاجي، بحيث تصير لها وفق هذه الخصائص حركة تقتضي فيها وجودها دون غيرها، ليكون الخطاب أذهب في الحجاج .

ويتوافق هذا مع آيات الابتلاء السبع التي بين أيدينا، فالآيتين في سورة هود [١٠.٩]، تصفان حال اليؤوس الكفور حين يبتلى بالضر، والأمر كذلك في سورة فصلت [آية:٥٠]،والتي ختمت بقوله تعالى" فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ "، وفي سورة الشورى [أية:٤٨] تختم الآية بقوله تعالى " فإن الإنسان كفور "، يقول الطاهر بن عاشور: " وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أن هذا الخلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام، فالذين لم يسلموا باقون عليه، وذلك أدخل في التسلية لأن اسم الإنسان اسم جنس يتضمن أوصاف الجنس المسمى به على تفاوت في ذلك وذلك لغلبة الهوى [١].

فلهذا الاستعمال القرآني فعالية حجاجية خاصة، مرادها توجيه الدلالة في السياق، ذلك أن غاية الحجاج ومرد الإقناع في الآيات التي ذكر فيها لفظ "الإنسان" هو تغيير الطباع وتوجيهها للأفضل، ذلك أن " طبيعة النص القرآني من حيث هو كتاب هدى ودين، تقتضي توجيه كل لفظة وآية إلى مناط الهداية والإعتبار"[٢]، فاستخدم كلمة إنسان في دلالتها على المخالفة ينشد التوجيه إلى الأمثل، ذلك أن"الإنسانية ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشرور، وفتنة

---

[١] التحرير والتنوير : ١٣٤/٢٥، ١٣٥.

[٢] مقال في الإنسان : ١٧.

الغرور بما يحس من قوته وطاقته، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات" [١].

وعلى ذلك، فبين أصل ما خلق له وما خلق عليه تتحرك كلمة " الإنسان " حجاجيا في الخطاب القرآني، فتشير إلى أسوأ ما في الإنسان تحريضا ودفعا للأمثل .

أذاقها

في قوله تعالى في سورة النحل [آية١١٢]:" وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون ". تجتمع الإشارات لتحاج لطلاقة القدرة الإلهية مقابل ضعف البشر وهوانهم اجتماعا يهدف إلى إقرار عقيدة التوحيد . وذلك من خلال :

١. علاقة التتابع (فكفرت / فأذاقها)

الآية قائمة على علاقة التتابع التي تصل بين الأحداث، وتجعل لأولها مستتبعات تؤسس وحدتها وتؤكدها وهذه العلاقة توفر للخطاب تناميه وتناغمه إذ تلتقي عند أمر واحد، حين تقود الحجج إلى نتيجة واحدة .

حيث وفرت هذا العلاقة لونا من الانفتاح والجمع بين عالمي الجريمة والعقاب، عبر الرابط الحجاجي " الفاء" بما لها من قيمة التقارب بين الأحداث، والتي إذ تعمل على ترتيب الحجج لتصل بها إلى نتيجة، فإنها تقصد في الوقت ذاته إلى لون من الربط السببي بين العمل والجزاء . وبتمثيل علاقة التتابع في الآية يمكن رصد النتيجة على الوجه الأتى:

---

[١] السابق : ١٤.

(ن)		طلاقة القدرة الإلهية (عطاء وسلبا)
ق٣ فـ	–	أ ذاقها الله لباس الجوع والخوف
ق٢ فـ	–	كفرت بأنعم الله
ق١	–	قرية كانت أمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان .

"واقتران فعل " كفرت" بفاء التعقيب بعد " كانت آمنة مطمئنة " باعتبار حصول الكفر عقب النعم التي كانوا فيها حين طرأ عليهم الكفر، وذلك عند بعثة الرسول إليهم . وأما قرن " فأذاقها الله لباس الجوع والخوف "بفاء التعقيب فهو تعقيب عرفي في مثل المعقب لأنه حصل بعد مضي زمن عليهم وهم مصرون على كفرهم "[١]، ودليل ذلك قوله تعالى :" بما كانوا يصنعون "بدلالة المداومة والاستمرار في (يصنعون) ما يدل على إصرارهم على أفعالهم وملازمتهم لها، واستخدام مادة " الصنع" فيها " إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة "[٢]. وانتقاء كلمة " كفرت " دون جحدت أو بطرت هنا غايته حجاجية، " الكفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر وأصله جحد المنعم عليه نعمة المنعم اشتق من مادة الكفر بفتح الكاف وهو الحجب والتغطية لأن جاحد النعمة قد أخفى الاعتراف بها" [٣]

وتكمن طاقة الفعل "كفرت" الحجاجية فيما تحمله من سمات ضمنية، وهي أن المشركين المخاطبين قد أنعم الله عليهم نعمة ما أو نعم ما وأعظمها إرسال الرسول إليهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

---

(١) التحرير والتنوير : ١٤/٣٠٥ .

(٢) تفسير أبي السعود :١٤/٥.

(٣) التحرير والتنوير : ١٤/٣٠٥ .

فالكفر كلمة تقوم دلالتها العامة من الناحية الإخبارية على قسمين : قسم منطوق هو معنى الكلمة أي "جاحدو النعمة " وهذا القسم يقدم – شأن أي منطوق – على أنه معلومة جديدة، وقسم مقتضى هو أنه " أنعم عليهم " وتوجد نعمة " ... هي"الرسالة المحمدية" وهذا القسم يقدم – شأن أي مقتضى على أنه تحصيل الحاصل فهو من الحقائق الثابتة " [١] .

٢. أذاقها لباس الجوع والخوف

تعيد هذه البنائية التعبيرية قراءة القدرة الإلهية . " الإذاقة : حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم . وهي مستعارة هنا ... إلى إحساس الألم والأذى إحساسا مكينا كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا ... اللباس حقيقته الشيء الذي يلبس . وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه"[٢].

ولما كان اللباس مستعارا لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس به في الجوف والأمعاء . فاستعير له فعل الإذاقة تلميحا وجمعا بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع علية خلعة من إزار وبرد، فكانت الاستعارتان تهكميتان"[٣].

ولما كان أصل الإذاقة استعارة للإيصال اليسير فإذاقة الجوع والخوف مشعرة بأن الذي يوصلهما قادر على تضعيف ذلك وتكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا ؟ وهو الله الذي له القدرة كلها .

---

[١] الحجاج في القرآن : ١١٧ .

[٢] التحرير والتنوير : ٣٠٤/١٤ .

[٣] السابق : ٣٠٦/١٤.

أذقناك

قال تعالى في سورة الإسراء:" وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا " [الآيات ٧٣:٧٥]

وتدرج " أذقناك" في هذه الآيات ضمن جملة العناصر اللغوية التي استخدمها الخطاب لصناعة معطى غايته الاحتجاج لـ"عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلو قدره"، إضافة إلى أدوات الربط وعوامل الحجاج التي أدت دورها في هذا الحجاج ومنها :

١. كاد

"كاد" عامل حجاجي، والعامل الحجاجي هو صريفة (مورفيم) إذا جرى تطبيقه في محتوى أو ملفوظ معين، يؤدي إلى تحويل الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ "[١] .

وينظر في " كاد " إلى اقتضائها من ناحية وحجاجيتها من ناحية أخرى، حيث يعد الاقتضاء والحجاج فعلان لغويان .

فإذا اعتمدنا مفهوم الاقتضاء فإننا سنقول إن مقتضى "كادوا أن يفتنوك"، "كدت تركن إليهم " هو أن الفتنة لم تقع، ولم يقع الركون، لأن وجود "كاد" اقتضى ذلك، لأن " كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية [كادوا أن يفتنوك] أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة فإننا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلانا لا يفهم منه أنه ضربه" [٢].

---

[١] الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو ، الراضي رشيد :٢٣٥ ، عالم الفكر ، العدد ٣٤، يوليو-سبتمبر ٢٠٠٥م.

[٢] التفسير الكبير :٢١/٢٣.

أما من ناحية الحجاج، فالعامل "كاد" يتيح لنا الربط بين مقاطع النص وأجزائه، وبين الأقوال والجمل داخل المقطع الواحد"[١]، ووفق التحليل الحجاجي، فإن القولتين : كادوا أن يفتنوك، كدت تركن إليهم، تسيران في الاتجاه الذي تؤدي إليه الحجتان : فتنوك، ركنت إليهم، وتخدمان النتيجة التي تخدمها هاتان الحجتان . ونمثل العلاقة في كل على الشكل الآتي :

فتنوك] شدة إلحاحهم ومكرهم

كادوا أن يفتنوك] شدة إلحاحهم ومكرهم

ركنت إليهم] شدة إلحاحهم ومكرهم

كدت تركن إليهم] شدة إلحاحهم ومكرهم

هذه النتيجة المستخلصة تبعث على استلهام نقطة الالتقاء بين مستويي الاقتضاء والحجاج . فبينما يسفر الاقتضاء عن عدم الفتنة وعدم الركون، فإن الحجاج قد يوصل عبر نتيجته إلى هذا المقتضى، وفي نظم الدرر " (لقد كدت تركن إليهم إلا قليلا) ويجوز أن يكون المراد الدلالة على شدة مكرهم وتناهي خداعهم إلى حالة لا يدرك وصفها فيكون الفعل مسندا إليه صلى الله عليه وسلم والمراد إسناده إليهم ليكون المعنى : كادوا أن يجعلوك مقاربا للركون إليهم"[٢] .

٢.لولا

تستخدم لولا في الحجاج من باب الاحتياط والتحفظ على نتيجة حجاجية، لأنها تدخل على جملتين لربط امتناع الثانية بوجود الأخرى، " فامتناع قرب الركون مرتبط بوجود التثبيت . وذلك لأن لولا لانتفاء الثاني لأجل انتفاء نفي

---

[١] **الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي : ٥٦ ، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٠ م.**

[٢] **نظم الدرر : ٤٨٦/١١ ، ٤٨٧ .**

التثبيت . وانتفاء النفي وجود، فإذن التثبيت موجود وقرب الركون منتف"[١]، أي لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخشي أن تقترب من ركون ضعيف قليل ولكن ذلك لم يقع ودخلت (قد) في حيز الامتناع فأصبح تحقيقها معدوما، أي لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل ولكن ذلك لم يقع لأنا ثبتناك " [٢].

ويمكن تمثيل دور (لولا) في الآية على النحو التالى :

لولا (احتياط وتحفظ)

↓

ثبتناك (نتيجة أولى)

↓

"ف" لم تركن إليهم (نتيجة ثانية)

وهنا نلاحظ دخول "لولا" قبل النتيجة الأولى وذلك لنفي كل ما يقع بعدها، فلم يقل (لقد كدت تركن إليهم لولا أن ثبتناك)، وإنما بدأ بـ"لولا" ليبين أن التثبيت واقع قبل الكيدودة، وهذا ما ينفي عنه صلى الله عليه وسلم أدنى ركون، "أي لولا تثبيتنا إياك على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ... لقاربت أن تميل إليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خداعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب بأدنى الأدنى من الميل إليهم فضلا عن نفس الميل إليهم، وهذا صريح في أنه صلى الله عليه وسلم لم يهم بإجابتهم ولم يكد " [٣]. ومن ثم تعد " ثبتناك" الحجة التي دعمت بعد "لولا" النتيجة و هي " عصمته عليه الصلاة والسلام " .

---

(١) السابق :١١/٨٤٦ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/١٧٦ .

(٣) روح المعاني :١٥/١٢٨ ، وفي التحرير والتنوير : ١٥/١٧٥ ،١٧٦"فركون النبى – صلى الله عليه وسلم- إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع لأن الآية قد نفته بأربعة أمور

٣.أذقناك

تنخرط أذقناك " في جملة الحجج المسبوقة لبيان عصمته صلى الله عليه وسلم وعلو قدره وسمو مكانته . وقد احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فكان مما احتجوا به " أنه لولا سبق جرم وجناية وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد [١]. يقول فخر الدين الرازي في الرد على ذلك :" ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين) ومنها قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) ومنها قوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين)" [٢] .

" إذا لأذقناك " أي لو قاربت لأذقناك" [٣]، وفي روح المعاني " لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات " والمعنى لو قاربت ما ذكرنا لنضاعفن لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا والعذاب المؤجل لهم بعد الموت ... وفي هذه الشرطية إجلال عظيم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه على أن الأقرب أشد خطرا وذلك أنه أوعد بضعف العذاب على مقاربة أدنى ركون وقد وضع عنا الركون ما لم يصدقه العمل" [٤]، وفي الكشاف " وفي

، وهي : (لولا) الإمتناعية . وفعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه ، والتحقير المستفاد من "شيئا" والتقليل المستفاد من " قليلا" .

[١] التفسير الكبير :٢٢/٢١.

[٢] التفسير الكبير : ٢٣/٢١ .

[٣] تفسير البيضاوي : ٢٦٣/٣ .

[٤] روح المعاني :١٢٩/١٥ .

ذكر الكيدودة وتقليلها مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته "[١].

وعلو شأنه صلى الله عليه وسلم مرهون بصفة رسول الله والتي هي الأخرى تستدعي عصمته. لكن هذه الشدة والمضاعفة في العذاب في حق رسول الله، لأنه أسوة كبيرة وقدوة يقتدى بها الناس، ويستحيل في حقه هذا الفعل ولا يتصور منه صلى الله عليه وسلم، فالنص " يذكر فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا . وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين" [٢].قال ابن عباس : ورسول الله معصوم، ولكن هذه مخاطبة لأمته لئلا يركن أحد المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه"[٣]، وفي تفسير الشعراوي " وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكره من صدور القوم لمحمد وينقلها له سبحانه"[٤].

---

[١] الكشاف : ٦٠٥/١٥ .

[٢] وفي تفسير ابن كثير : ١١٢٩ عن تلك الآيات " يخبر الله عن تأييد رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته ، وعصمته ، وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ، وناصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه ، في مشارق الأرض ومغاربها" .

[٣] التفسير البسيط ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي : ١٤/١٣، تحقيق محمد بن صالح الفوزان ، الرياض ، ردمك .

[٤] تفسير الشعراوي : ٨٦٩١/١٤ .

الصيغة الخامسة (يذيق)

وردت صيغة يذيق في اثنتي عشرة آية من التنزيل الكريم، وهي الآيات من قوله تعالى :

١.وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [الحج:٢٥]
٢.وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا [الفرقان:١٩]
٣.وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ [سبأ:١٢]
٤.فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا [فصلت:٢٧]
٥.وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة:٢١]
٦.فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [فصلت:٥٠]
٧.لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ [الحج:٩]
٨.ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس:٧٠]
٩.فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ [فصلت:١٦]
١٠.أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ [الأنعام:٦٥]
١١.لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم:٤١]
١٢.وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ [الروم:٤٦]

وجميعها من السور المكية، عدا الآيتين من سورة الحج فهما مدنيتان، ويجمعها كلها مقام الوعيد بالعذاب عدا الآية السادسة والأربعين من سورة الروم . فهي في مقام الرحمة، ومنها آيات تسع استخدم فيها ضمير المتكلم الجمع الدال على العظمة، وآيات (ست) استخدمت فيها صيغ التوكيد، مما يكشف عن لون من التميز اختصت به صيغة المضارع (يذيق) . و يمكن أن نستعرض وجوه الحجاج فيه و طبيعته من خلال دراسة الحجاج في قوله تعالى : "فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ".

.. والعذاب الشديد المنذر به في الآية هو عذاب يوم بدر، ففي الكشاف :" وعن ابن عباس (عذابا شديدا) يوم بدر" [١]، فهو عذاب من عذاب الدنيا.

في قوله تعالى " فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا عدول كمي بالزيادة تمثل في أداتي التوكيد اللاحقتين بالفعل "نذيق"، ووصف العذاب المنكر في قوله تعالى :" عذابا شديدا " .

ومجيء التوكيد والزيادة على الفعل "نذيق" له بعد اقتضائي، فلا يجيء التوكي بأداتين إلا دفعا لإنكار من المخاطب، فيما يبرره قوله تعالى " الذين كفروا "، وهو " إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علة إذاقة العذاب، يلكفرهم " [٢]، أي بسبب جحودهم بآيات الله أي القرآن .ومن يجحد آيات الله وقرآنه يجحد القدرة على مقابلة أقوالهم وفعالهم بالعقاب، ومن ثم جعل إنذارهم وعذابهم بمادة "الذوق" "لنذيقن" بصيغة المضارع لما تحمل من دلالة الانتقام الممتد بالغ الإدراك والشدة، وضمير الجمع المتمثل في نون العظمة التي تستخدم في النص القرآني لدلالات من أهمها دفع الشك، ثم جعل دفع الإنكار بأداتي التوكيد اللام والنون، "فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا "[٣]: أي في مقابلة ما اعتقدوه في القرآن وعند سماعه "، ذلك " أن هؤلاء الكافرين الذين حدثنا الله عنهم في أول السورة ثم رد عليهم لم يستفيدوا من التقرير والوعظ والإنذار، بل هم مزينة لهم أعمالهم، مصرون على حرب القرآن"[٤].

---

(١) الكشاف : ٩٦٨/٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير :٢٧٩/٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم :١٧٤/٧ .

(٤) الأساس : ٥٠٢٠ .

فأوجد التوكيد هنا لينهض بوظيفة حجاجية تتمثل في تقديم أمر العذاب وفرض حقيقته على المخاطب باعتباره من المسلمات والمقتضيات غير القابلة للنقاش والمجادلة . لما في المصادقة على وقوع العذاب من المصادقة الضمنية على قدرة فاعله التي تقتضى تسليما بوجوده، ومن ثم صدق رسالته ورسوله، وهو ما لا يمكن أن تنهض به الآية وهي عارية عن التوكيد .

فحال خلو الجملة (لنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا) من التوكيد، فإننا لا نجد لها مقتضى في حالة النفي حين نقول : لا نذيق الذين كفروا العذاب، ولا في حالة الاستفهام بقولنا : هل نذيق الذين كفروا العذاب ؟ وإن بقي مقتضى لا يتعلق بالحكم الواقع فيها أو النسبة أو القضية، وإنما يتعلق بأحد أركانها وهو وجود العذاب دون وقوعه .

بينما التوكيد بأداة واحدة مما يجعل الحكم الواقع في الآية في درجة وسطى من درجات التوكيد، لا يصمد أمام الإنكار الذي يدعمه قوله تعالى :" الذين كفروا "، فالتوكيد بمؤكد واحد يعني: أكدت أو حققت وقوع العذاب، وهو ما ينقل الدلالة إلى أن تصبح تعبيرا عن موقف اعتقادي هو " أنا متحقق من وقوع العذاب "، ما يجعل وقوع العذاب مقتضى حاصلا من هذه الجملة، لكنه غير ثابت ولا يقيني.

أما والوضع القائم كونهم منكرين بالكلية وليسوا فيما بين الشك واليقين فإضافة النون إلى اللام هنا لإفادة تحقق المنكر، حيث يصبح مقتضى هذا الوضع : أنا متحقق تحققا من وقوع العذاب، أو اليقين القاطع بوقوع العذاب .

ذلك أن المقتضيات تقدم على أنها غير قابلة للدحض إذ إنه بإمكاننا أن نرفض المنطوق أما المقتضى فقد تأخرت مبدئيا، ساعة رفضه .

ومن ثم فالتوكيد بالأداتين " اللام وإن الثقيلة " له وظيفته الحجاجية من جهة الاقتضاء الذي يكسب الجملة التوكيد، ويؤخر لحظة اعتراض المتلقي على القضية المطروحة عبر المنطوق .

ويمكن تعرف المقتضى الناتج عن هذا التوكيد بعرض الجملة على النفي والاستفهام، حيث يتبين أن المقتضى قد صار معلومة محققة لا مراء فيها . "فلنذيقن الذين كفروا عذابا "، هي حال إخضاعها للنفي " لا نذيق الذين كفروا عذابا شديدا باليقين والقطع، وحال إخضاعها للاستفهام : هل نذيق الذين كفروا عذابا شديدا باليقين والقطع؟ .

التوكيد في الجملة كما يتضح حين إخضاع المحتوى فيها لسياق النفي والاستفهام، يحافظ على استفهام : هل يتحقق العذاب تحققا تاما أم لا ؟ وليس : هل العذاب حق أم لا، وهل هو واقع أم لا ؟ فيحصل ضمنيا الإقرار بحقيقة حصول العذاب في صورة مقتضى بات واقعا محصلا لا يمكن الاعتراض عليه .

والمقتضى من هذا القبيل قائم كذلك في النعت التابع لمنعوته والمؤكد له في قوله " عذابا شديدا "، و الذي يبدو للوهلة الأولى زائدا لكون معناه قد أدرك من خلال منعوته . حيث فهم من تنكير كلمة عذاب أنه من العظم والكثرة والهول، يقول الزركشي في قوله تعالى : " ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون " [البقرة:١٠] " معناه التعظيم، أى الذى لا يوقف على حقيقته"[١]، وهو ما من شأنه أن يجعل النعت " شديدا " كالزائد، كون معناه مدرك في منعوته، ومن أجل ذلك عُد توكيدا.

لكنه في الحقيقة توكيد يدرك على صعيد المنطوق لا الضمني " فإن هذا النعت يأتي لينتج مقتضى مهما جدا من الناحية الحجاجية وذلك لعدم قدرة الخصم على دحضه ورفضه فهو من قبيل المقتضى يبقى رغم امتحانه بالنفي والاستفهام، ما يبين أهمية الدور الحجاجي الذى يقوم به النعت "[٢] .

---

[١] البرهان : ٤/٩١ .

[٢] الحجاج في القرآن : ٣١٠ .

" لهم عذاب أليم " حين نخضع محتواه للنفي يغدو : ليس لهم عذاب أليم . والاستفهام : هل لهم عذاب أليم ؟ ومقتضاهما لهم عذاب أليم، ومن هنا فالنعت إذ يجيء لتأكيد شدة العذاب منطوقا، يجئ ضمنيا ليصادق على قضية حصول العذاب وثبوته .

الصيغة السادسة (ذائق)

ورد اسم الفاعل (ذائق) في خمس آيات قرآنية' وهي الآيات من قوله تعالى :

١) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ [آل عمران: ١٨٥]
٢) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ [الأنبياء: ٣٥]
٣) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [العنكبوت:٥٧]
٤) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ [الصافات: ٣١]
٥) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ [الصافات: ٣٨]

وجميعها يأتى في إطار العهد المكي، عدا الآية من سورة آل عمران فهي من سور العهد المدني، ومنها آيتان بصيغة "ذائقوا" في مقام العذاب، والآيات الثلاث الأخرى بصيغة "ذائقة" في مقام الموت، وقد تكررت في الآيات الثلاث جملة " كل نفس ذائقة الموت "، وهذا التكرار يستدعي توقفا لاستقصاء وجوه الحجاج التي كفلتها صيغة اسم الفاعل فى تلك المواضع الثلاثة . فيما يمكن إدراكه عبر ما يأتي :

أولاً:

بالنظر إلى المحتوى النحوي لقوله تعالى :" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ" فإننا نلتمس أداء للبنائية الاسمية يجعلها خدما في تقرير حقيقة ثابتة معلومة للعقل، مشاهدة للحس، وهي أن (الموت نهاية كل حي) .

شايعت الصيغة الصرفية " ذائقة " دلالة هذا الثبوت بوقوعها وصفا للمسند إليه، " فحين يراد اللزوم والدوام يستخدم النعت – اسم الفاعل أو المفعول – أما إذا لم يكن

الوصف ملازما فيستخدم الفعل"[١]، قال ابن المنير " إنما امتاز اسم الفاعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل لا تعطى سوى حدوث معناه من فاعل لا غير، وأما اتصاف الذات به فذلك أمر يعطيه اسم الفاعل، ومن ثم يقولون (قام زيد فهو قائم)، فيجعلون اتصافه به ناشئا عن صدوره منه " [٢] .

تتجاوز الجملة الاسمية عامة واسم الفاعل خاصة بدلالة الثبوت والدوام إلى درجة من التوكيد " لأن بناء مؤكديتها على إفادة الدوام والثبات "[٣].

ويرجح بعضهم الجملة ذات المشتق على الجملة الجامدة الجزأين في إفادتها التوكيد، يقول ابن يعقوب المغربي : " وبهذا يندفع ما يتوهم من أن الجملة الجامدة الجزأين هي في الثبوت أكد مما فيه مشتق، فكيف يحكم بأن المشتق أقوى في التوكيد ؟ .

لأن المراد طلبه لما نسب له أقوى كالفعل بخلاف الجامد فهو مستقل، والتوكيد موجود في جملته من جهة كون معناه وصفا ذاتيا أو لازما في الأصل للمخبر عنه لا من جهة كونه طالبا للمنسوب إليه، فالمشتق أقوى منه في هذا المعنى لشبهة الفعل، فالجامد الثبوت فيه من جهة المدلول، فهو خارج عن

---

(١) الصاحبي، أبوالحسين أحمد بن فارس : ٤٦٣ ، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ط، د.ب .

(٢) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، على هامش الكشاف، ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري : ٦٠٧/١وما بعدها ، دار الفكر ، د.ب ، د.ط ، د.ت .

(٣) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد المرشدي ، وبهامشه : حلية اللب المصون على الجوهر المكنون ، الشيخ أحمد الدمنهوري :٤٢ ، دار الفكر ،د.ب ،د.ط ، د.ت ، عن طبعة رستم مصطفى الحلبي ، القاهرة ١٩٣٩م.

إفادة التقوية بإعادة وضع اللفظ، والتأكيد في المشتق بإعادة دلالة اللفظ لا بنفس مدلوله بذاته كما في الجامد "[١].

ومن ثمّ فالتوكيد يطال ركني الجملة الاسمية بفضل صنيغة اسم الفاعل، ويدعم عدولها الجدولي النوعي وما ينحو إليه من غاية توكيد المعنى المراد بثه للمخاطب، وهو الإجراء الذي من شأنه أن يدرج الجملة الاسمية ضمن وسائل الحجاجي

يدعم هذا اللون من التوجه الحجاجي عبر التوكيد، ما تهدف إليه الجملة الاسمية من الإقناع عن طريق التعبير عن حقيقة عامة، ... وهي لا تبلغ عن معطى حدثي، لكن هي تصنع حكما لا زمنيا دائما، والذي يعمل مثل حجة السلطة، فالجملة الاسمية تحوذ في ذاتها قيمة حجاجية، حجية، مرجعية . نستعملها في الخطاب للتأثير والإقناع لا للإبلاغ .

فتمحض الجملة الاسمية للتعبير عن الحقائق العامة والمبادئ القارة واستعمالها للتأثير والإقناع يجعلها بذلك متمحضة صراحة للحجاج . أليس الحجاج إقناعا وتأثيرا ومحاولة إيهام بامتلاك الحقائق العامة والمبادئ القارة . وما يؤكد هذا أيضا هو ذلك التوازي بين المسند والمسند إليه ما دام هذا يساوي ذاك وذاك يساوي هذا فلا تناقض ومن أولويات الحجاج عدم الوقوع في التناقض "[٢].

فمورد الإقناع في الآية " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " ما ينهض به الواقع من إثبات الملفوظ، وغايته أن يحمل على أنه واقع لا محالة،" فلابد من استقرار

---

[١] مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي : ٤٢٣/١ ، ٤٢٤ ، ضمن مجموعة شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية ، بيروت د.ط ، د.ت .

[٢] مساهمة في تحديد الجملة الاسمية ، عبد القادر المهيري: ٨ ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد: ٥ ، ١٩٦٨م .

هذه الحقيقة في النفس، حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بالأجل ثم تأتي نهايتها حتما "[١] .

وعبر ارتكاز الآية على دعائم من الحقيقة والواقع، واحتوائها على صفة التوكيد، وبجنوح دلالة التداول فيها إلى الوعظ [٢] (تنبيها وتذكيرا)، (وعدا ووعيدا) [٣]، تصبح ذات وظيفة توجيهية، يتحول بموجبها محتواها الوصفي المعلوم المحايد إلى محتوى لا وصفى موجه، ما يمحضها للحجاج .

ثانيا:

أن اسم الفاعل " ذائقة " أضيف في الآية إلى "الموت"، وعلى الرغم من أن المعنى لما يستقبل، أي كل نفس ستذوق الموت، وأن هذا مما يقتضي تنوين اسم الفاعل، كما ذكر النحاة، إلا أن القرآن الكريم، بأسلوبه اللغوي الدقيق الفريد، أفرغ اسم الفاعل من زمنية محددة [٤] ليجعل من الموت حقيقة ثابتة، بحيث طالت وحدتي اللغة "ذائقة الموت" تلك القاعدة التي تحكم العلاقة بين المتضايفين، وتجعلهما معا وحدة

---

(١) في ظلال القرآن : ٥٣٨/٤.

(٢) وفي المحرر الوجيز " هذا خبر واعظ " : ٣٨٨ .

(٣) وفي روح المعاني " (كل نفس ذائقة الموت) أي نازل بها لا محالة ، فكأنها ذائقته ، وهو وعد ووعيد للمصدق والمكذب" :١٤٥/٤ .

(٤) ذكر سيبويه أن "العرب تفعل ذلك استخفافا دون أن يتغير المعنى"، الكتاب:١٨٣/١،١٦٦،١٦٥. شرح السيرافي :٢٤/ ٦٢،١٠١،١٠٣. شرح المفصل : ٨٤/٤ ، ٨٥ .. وفي التفسير الكبير (وغيره) الإضافة في ذائقة الموت في تقدير الانفصال لأنه لما يستقبل " ١٦٩/٢٢.

لسانية واحدة حسب " مبدأ المقولة المتلازمة " [١] لـ" يصبح وجود المضاف إليه سببا في تمام المضاف ومقتضاه "[٢].

فعلاقة انبنت بين عنصرين دلاليين باقتران كل منهما بالآخر، قامت على مرجعية نحوية، وعلى أساس معجمي تصاحبه دلالة مجازية حافة، وعلى الصيغة الصرفية للمشتق " ذائقة "، وعلى بناء نفسي يؤسس للون من الحجاج غايته أن يخط الملفوظ أثرا بارزا فى النفوس .

فذاق أصله الذوق باللسان، ثم يستعمل بمعنى التجربة والاختبار والمقاساة للشيء والمكابدة له، ويقول الطاهر بن عاشور" اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام والعذاب" [٣].

أما عن الموت فيقال : "مات يموت ويمات ويميت : فهو ميت، ومَيت : ضد حي . ومات : سكن، ونام، وبلي" [٤].

إلى جانب ما تضيفة دلالات المعجم للفظة (موت) كونه ضد الحياة، وكونه السكون، والبلى . فإن استخدام العنصر الدلالي (الموت) خاصة دون سائر مرادفاته وما استخدمه العرب فيه من الكنايات، لأن ذكر الموت له تأثير على النفس البشرية،" والواقع أن الثروة الطائلة من المترادفات التي ولدتها جميع اللغات لتخفيف صدمة الموت ووقعه على النفس، إنما ترجع إلى قانون

---

[١] نحو نظرية لسانية إعرابية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية ، مازن الوعر : ١٠٨ ، دار طلاسي للدراسات والنشر، سوريا ،دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٢ م.

[٢] حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية بن مالك ، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي : ٢/٢٧٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٧م.

[٣] التحرير والتنوير :٧/٥.

[٤] القاموس المحيط : ١٦٠ باب التاء فصل الميم .

الاستهلاك بكثرة الاستعمال، والحاجة الدائمة إلى التجديد، وليس دور هذا القانون في هذا المضمار بأقل من دور الموت نفسه، ذلك المجال الذي يضطرنا إلى التنويع والتجديد في اصطلاحاته، بسبب ماله من تأثير عاطفي" (١).

فلفظ (الموت) "مما يثير الخوف والهلع في نفوس الناس، لذا يفرون من سماعه، ويبدلونه بألفاظ أخرى تدل على الموت لكنها أقل تأثيرا فى النفس "(٢).

الاقتران بين الذوق والموت يحتج لشدة الالتصاق والاتصال بين الإنسان وما يفر من سماع اسمه وهو الموت، الذي تحول بالإضافة إلى شيء مر في فم الإنسان يذوقه ويتحسسه .

ومن ثم فإقتران المتضايفين " ذائقة الموت " في جملة التقرير " كل نفس ذائقة الموت " يولد مفهوما دلاليا خاصا يستمده الخطاب القرآني من لسان العرب، من قولهم " ذقت طعم الموت " ليصنع به فعلا كلاميا لفظيا، إنجازيا، تأثيريا، حيث " إن الجانب التداولي للحجاج يظهر من خلال استعمال بنية لغوية معينة تتحكم فيها ضوابط خارجية عن هذه البنية وتدفع بالمتلقي إلى فعل معين سواء على مستوى سلوكاته أو مستوى قناعاته وأفكاره وبالتالي ترتسم بنية الحجاج في فعل كلامي" (٣).

---

(١) دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة كمال بشر :١٨٢، دار غريب ، ط١، مصر .

(٢) بحث أثر العامل النفسي في تغير دلالات الألفاظ ، فرهاد عزيز محى الدين : ١٠ ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية ، المجلد ٨ ، عدد (١) ، ٢٠١٣ .

(٣) بين تداولية الأفعال الكلامية (مقاربة مفاهيمية) ، حمدي منصور جودي :١٠٧ ، بحث منشور فى حوليات المخبر ، جامعة محمد خيضر – بسكرة – العدد الأول ، ديسمبر ٢٠١٣ م.

واستخدام صيغة اسم الفاعل خاصة، بدلالته على " الحدث والحدوث وفاعله "[١]، هو ما أحيا فى الدلالة لحظات انسلاخ الروح من الجسد وما يلابسها من غصص الموت وآلام المفارقة، وانتقائه بلفظه وإحلال لفظ (الموت) مضافا إليه، شكل رافدا حقيقيا يرفد الحجاج غايته التأثير في المتلقى واستمالته إلى المقصود، وأقام حجة أولية على المغتر اللاهي بالدنيا، فذائقة الموت " أي : واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق، ومعناه : إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها "[٢]، ومن ثمّ نبهت وحدة الدلالة " ذائقة الموت " بالإضافة إلى مقاساة ما بعد الموت حال المخالفة .

ثالثا:

أن مسلكاً أدق ووجها أبلغ من وجوه الحجاج أدركته الآية، توفر على صناعته اسم الفاعل " ذائقة " فى إسناده إلى (النفس)، يتأتى الوصول إليه من خلال تفكيك العناصر اللفظية ثم إعادة تركيبها، بغية الوصول إلى المعنى الضمني المخبوء خلف القول الظاهر، واكتشاف منطق الخطاب، حيث يتمثل الحجاج في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل هذا الخطاب .

---

(١) شرح التصريح على التوضيح ، خالد الأزهري : ٦٥/٢ ، الحلبى ، القاهرة ، د.ت

(٢) الكشاف : ٨٢٢/٢٠ ، وفي تفسير الألوسي " أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت ومفارقة البدن البتة ، فلابد أن تذوقوه ، ثم ترجعون إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالكم ، فمن كانت هذه عاقبته ، فلابد له من التزود والاستعداد ، وفي قوله تعالى "ذائقة الموت" استعارة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم مره " :١٠/٢١ .

النفس عند العرب كما ورد في لسانهم هي : " الروح، والنفس الدم ،والنفس عبر بها عن الإنسان جميعه.والنفس الجسد "[١]، فالنفس في متداول العرب الفكري والاجتماعي هي الروح، والدم، وهي الجسد، وهي الإنسان

أما الذوق فهو "وجود الطعم بالفم فيما يقل تناوله بالفم دون ما يكثر [٢]، وتدل صيغة اسم الفاعل فيه على العروض في العمل، وإن دلت في ذاته الاسمية على الثبوت، يقول أكمل الدين محمد بن محمد البابرتي " المراد إفادة التجدد بالذات لا بالعوارض، فإنهما [اسم الفاعل والمفعول] يفيدان ذلك بواسطة عروض العمل، أما بحسب الذات فلا دلالة للاسم – صفة كان أو غيرها – إلا على الثبوت " [٣].

فاسم الفاعل يحمل دلالة العارض الحادث، والذوق في ذاته تستوطنه دلالة العارض، لأن الذوق في التعارف للقليل.

وقد تعددت دلالات لفظة "نفس" في النص القرآني- كما أوردتها كتب الوجوه والنظائر – وباعتبار السياق ضابط اللفظة ومحددها، فالمراد بالنفس في قوله تعالى : " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " " النفوس الحالة في الأجساد" [٤]، والمراد بذوق الموت، بما يستدل عليه من دلالته المعجمية، "مقدماته من

---

[١] لسان العرب : ٢٣٣/١ : ٢٣٥ ، مادة نفس.

[٢] المفردات في غريب القرآن ، باب الذال : ١٨٢ .

[٣] شرح التلخيص ، دراسة وتحقيق محمد مصطفى رمضان صوفية : ٢٤٧ ، المنشأة العامة للنشروالتوزيع والإعلان ، طرابلس– ليبيا ، ط١ ، ١٩٨٣م

[٤] التحرير والتنوير : ٦٣/١٧ .

الآلام العظيمة، لأن الموت قبل دخوله في الوجود يمتنع إدراكه، وحال وجوده فالميت لا يدرك شيئا " [١].

الآية في ربطها بين ذوق الموت والنفس تعمل على تأصيل قيمة انفصال النفس عن الجسد وعن الروح بزعزعة وتغيير نمطية العلاقة بين الإنسان وذوق الموت في الفكر العربى الجاهلي ومنشؤها القصور في الرابط العلائقي الدقيق بين النفس (خاصة) والذوق، لأن متوجه الدلالة كان دائما في تعبيرهم عن ذوق الموت ما يعني كونه واقعا لا محالة، وما يضمنه ذلك من إدراك معاناة ومقاساة آلامه، وما يعقبه من الفناء، ومن أشعار أمية بن أبي الصلت:

ومن لم يمت غبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها " [٢]

وسعي الآية لتأصيل قيمة الانفصال بين النفس والجسد، أن العرب احتجت في نفى البعث ببلى الأجساد، وفي القرآن الكريم " أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"[المؤمنون:٣٥: ٣٦]، " بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ، قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" [المؤمنون:٨٢:٨١] ... والروايات المتواترة كثيرة في حجاجهم رسول الله في أمر البعث بمثل هذا، وأشعارهم في ذلك كثيرة، ومنها أبيات تنسب إلى شداد بن الأسود عبد شمس بن مالك يرثي فيها قتلى بدر ويقول:

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عني وينشرني إذا بليت عظامي؟" [١]

---

[١] التفسير الكبير : ١٦٥/٢٢ .

[٢] ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق ودراسة عبد الحفيظ السطلي : ٤٢١ ،دمشق ، ١٩٧٤ م.

فأصل احتجاج العرب باستحالة البعث مرآهم للأجساد تبلى، وهم قد اعتقدوا أن النفس والجسد سواء واحد لا انفصال بينهما، فإذا بلي الجسد بليت النفس التي هي هو، والتي هي الروح [٢].

---

[١] وهي أبيات رويت بصور مختلفة في عدة كتب ومنها كتاب الصبح المنير في شعر أبي البصير : ٣٠٨ ، طبعة أوربا ، ١٩٢٧م.

[٢] وقد كشف النص القرآني عن الفرق بين النفس والروح بذكر كل منهما فيما تتطلبه الدلالة في السياق ، فاختص النفس في الآية دون الروح ببيان وقوع أثر الموت عليها ، فهي من يذوق السكرات ، وليس الجسد أو الروح ، بما وجه إليه اقترانها بالذوق .

فالنفس ليست هي الجسد ، وليست هي الروح كما فهم العرب ، وإنما الروح هي التي ترتبط بالجسد تبث فيه الحياة وتعدمها ، أما النفس فموجودة على الدوام تنتقل من جرم إلى جرم ، ومن شكل إلى شكل . فالجسد بال ، والروح عائدة ، والنفس باقية ، يقول السهيلي في الروض " وإنما الفرق بينهما – النفس والروح– بالاعتبارات ويدل لذلك ما رواه ابن عبد البر في التمهيد لحديث : إن الله تعالى خلق آدم وجعل فيه نفسا وروحا فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه ومن النفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه فلا يقال للنفس هي الروح على الإطلاق " الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الرحمن السهيلي ، تقديم طه سعد : ٦٢/٢ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر .

والروح في القرآن تذكر دائما بدرجة عالية من التقديس والتنزيه والتشريف ، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر أو

اسم الفاعل " ذائقة " في إسناده للنفس، فصل بين النفس والجسد وجعل في فناء أحدهما بقاء للآخر، فالنفس تذوق الموت لكنها لا تموت .. وتذوقها الموت هو رحلة عابرة في خروجها من البدن، " كل نفس ذائقة الموت : أي مفارقة كل ما ألفت حتى بدنا طالما لابسته، وآنسها وآنسته "[١] .

يدعم هذا الفصل ويحدد الدور، ما في مادة " ذوق " من دلالة الشعور والإدراك،" كل نفس ذائقة الموت " فيه ما يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن، لأنه جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لا بد أن يكون باقيا حال حصول الذوق، والمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن "[٢].

ويمكننا تلمس دور الحجاج الناجم عن هذه البنائية التعبيرية " كل نفس ذائقة الموت " إذا ما أسقطنا أيا من اللفظين " نفس " أو " ذائقة " من السياق، وهو

ملل ، ولا يذكر أنها تخرج من الجسد ، أو أنها تذوق الموت ... ولا تنسب إلى الإنسان وإنما تأتي دائما منسوبة إلى الله.

[١] نظم الدرر : ٥٨١٤.

[٢] التفسير الكبير : ١٢٩/٩ .

وفي الفتوحات الإلهية " أن كل نفس ذائقة موت أجسادها ، إذ النفس لا تموت ، ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها ، لان الحياة شرط في الذوق وسائر الإدراكات " ، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل : ٥٢٤/١ ، ضبطه وصححه وخرج آياته إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ .

ما لن يخل بتقرير حقيقة حتمية الموت، فقلنا : كل حي يموت، أو كل امرئ يموت، أو كل إنسان ذائق الموت ...

إن صناعة التعبير في الآية الكريمة من شأنه أن يخلق مجالا للنظر في أمر النفس بعد ذوق الموت، ومن ثم يضعك حيال قضيتين مقررتين إحداهما منوطة بالأخرى، ملازمة لها بالمنطق، فهي نتيجة تلقائية مطردة متولدة عنها، وهما قضيتا الموت والبعث .

حيث أدمج التعبير قضية البعث في قضية الموت بعلاقة التلازم لا التتابع، واستغنى السياق عن أي من ألوان الذكر أو التوكيد لقضية البعث بحيث جعلها من المقررات المنطقية الثابتة العالقة رأسا بالموت، عبر احتجاج استدلالي استدراجي .

فنحن بإزاء قضية أدمجت في قضية، ونتيجة حملت على مقدمة، بحيث صارت قضية " حتمية الموت " هي المعطى المقرر القديم، وقضية " حتمية البعث "، هي المقتضى المعطى الجديد .

وقيمة الحجاج في هذا التعبير هو استناده في إدراك الإقناع على دعائم من ملفوظ العرب، بإحداث التعديل فيه على مستوى الوحدات اللغوية، بحيث أمكن التوجيه نحو النتيجة المطلوبة .

والحجاج بالبعث مع عدم إشارة السياق إلى محاجة بشأنه، مرتبط بطبيعة الخطاب القرآني الذي يستحضر في انجازه كل الاعتراضات التي يمكن أن تدور في خلد المتلقي الفعلي أو المفترض، حيث إن المقام الأعلى في الآية الذي قصد إليه السياق هو " الوعد للمصدقين، والوعيد للمكذبين "، فكان في تحقيق أمر البعث تحقيق أمر الحساب، حيث خلق الإدماج بين قضيتي الموت والبعث قناعة بأن لحظة الموت هي لحظة الحساب، وهو المرام الأقصى في مقامي الوعد والوعيد .

وقد اعتمدت بنية الحجاج في الآية على الاستدلال " والاستدلال بوجه عام هو استنتاج قضية من قضية أو عدة قضايا أخرى"[١]، وهو أحد الأنساق المنطقية التداولية التي يبنى بها الخطاب الطبيعي ويتكاثر، ويتميز بأنه يجعل المخاطب في وضع ضرورة وخضوع واستلاب .

فالآية " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " هي حجة، يقع منها الانطلاق في الحدث الحجاجي، أو ما يسمى بقضايا الانطلاق، بحيث إذا سلكنا هذا " المحتوى القضوي " في سلم الحجاج، كان الاستنتاج الواقع فيه على النحو الآتي:

(ن) المضمرة النفس لا تموت (إنما يموت الجسد) (النفس تبعث) .

ق٣ ـــــ المدرك لا بد أن يكون حيا

ق٢ ـــــ الذوق إدراك (عارض)

ق١ ـــــ كل نفس ذائقة الموت

إثارة قضية البعث في الآية على هذا النحو، وجه بنية التركيب بعد جملة " كل نفس ذائقة الموت " إلى التقديم في قوله تعالى " والينا ترجعون " [الأنبياء:٣٥]، لأن بقاء النفس وبعثها يستلزم سؤالا : لمن البعث والحساب ؟ فكان التقديم بالتخصيص إلينا " أي : إلينا لا إلى غيرنا [٢]، واستخدام مادة (رجع) وصيغة البناء للمفعول، هو ما انبنى على إثارة قضية البعث .

---

[١] المنطق التوجيهي ، أبو العلاء عفيفي : يراجع في /تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية ، عمر الملا حويش :٣٧٢ ،هامش رقم (١) ، بغداد ، ١٩٧٢ م .

[٢] تفسير أبي السعود : ٣/٧٠١ ، وفي سورة آل عمران " وإنما توفون أجوركم يوم القيامة " وحجية حساب القيامة فيها قائمة على حجية البعث ، وفي سورة العنكبوت " ثم إلينا ترجعون " .

المستوى الثاني
الصـــــورة

للصورة الفنية أثرها الفعال الذي لا يحدثه الأسلوب الحقيقي، في كثير من الأحيان، فالتصوير أداة الفن والجمال، ومستودع القيم التعبيرية ذات القدرة الفائقة على احتواء إدراكات شتى للمتلقي .

وبينما درج الدارسون على النظر إلى الصورة باعتبارها جماليات وفنيات نصية، نجدها في النص القرآني جزءًا ملتحما به، فهي أصل في تركيبه يبنى عليها ولا تبنى هي عليه، تحوذ بوضعيتها أبعاد الجمال والتأثير والإقناع، بما يعد تقريبا للهوة بين الفن الأدبي والخطاب الحجاجي الوظيفي .

التصوير القرآني ينتخب من مواد الصورة، ما يجعلها في باب الخصوص – في حضور السياق الخارجي – أصلح ما يكون لإقناع المتلقين الأول والتأثير فيهم، ثم إنه يتوسع بهذه المواد الفنية، ويتجرد من ملابسات الأحوال خارج السياق، فيغدو لون حجاج عام لكل زمان ومكان " وأفضل الحجاج ما صلح لهذا وذاك معا" [1].

وحيثما يهيمن التصوير الاستعاري على مادة (الذوق) في المدونة القرآنية، نلتمس لهذا اللون من الإبداع البلاغي وجوها حجاجية ما كان لاستعمال اللفظ الحقيقي أن يدركها .

فالاستعارة " من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جداً، ما دمنا نسلم

---

[1] الحجاج في القرآن : ٥٢٣ .

بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري" [١].

والأقوال العادية إذ تقبل الإبطال أو التعارض الحجاجي، فإن القول الاستعاري لا يقبل هذا التعارض الحجاجي، ويأبى أن يجيء بعده رابط من روابط التعارض الحجاجي مثل : لكن، وبل، وأي : لأنه لا يقبل أن يرد في سياق الإبطال أو التعارض الحجاجي" [٢].

كما يتميز المجاز، وأساسه فكرة "الاستعارة"، بأنه أحد ألوان استدراج المتلقين إلى القبول بالمعروض عليهم من خلال الصورة، ذلك أن إنكار ما يعرضه عليك مخاطبك على وجه التصريح أيسر من إنكار ما تستنتجه بنفسك بطريق التأويل .

إن قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي " [٣] .

خلاصة ذلك أن الاستعارة تعلو لفظ الحقيقة، لأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا، وتعرف الاستعارة الحجاجية بأنها " تلك الاستعارة التي تهدف إلى

---

[١] اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي : ١٠٥، مطبعة العمدة للطبع ، الدار البيضاء، المغرب ، ط١ ،٢٠٠٦ م،

[٢] السابق : ١٠٧ .

" وهذا ما يفسره لحن الجمل الآتية : زيد أسد لكنه مشهور ، خالد بحر لكنه مسرف " السابق : ١٠٧ .

[٣] الاستعارة والحجاج ، ميشال لوقيرن :٨٧ ، ٨٨ ، مجلة المناظرة ، المغرب ، السنة الثانية ، العدد (٤) شوال مايو ١٩٩١م .

تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي "[١]، حيث يرى بعضهم أن الاستعارة مركز الحجاج نظرا لما تحققه من نتائج إيجابية في تقريب المعنى إلى ذهن القارئ، يقول طه عبد الرحمن : " العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج "[٢]، وحيث يعتبر بيرلمان الإقناع هو الوظيفة الأساسية للبلاغة وليس التأثير، مما يترتب عليه أن الاستعارة حجاجية وإقناعية بامتياز .

ولا يدرك حجاج الصورة الاستعارية في القرآن، على صعيد الاستبدال الواقع بين المشبه والمشبه به، إلا من زاوية ضيقة تتسع بالنظر إلى قيم السياق التي تفضي إلى انكشاف المعنى الكامن .

ولعل جانبا مهما يؤديه الاستبدال الاستعاري، هو اعتماد المستعار منه مثالا أسمى ودليلا أفضل، حيث يعلقه المجال الاستعاري بنسق من القيم العليا تجعل الاستعارة أدعى من الحقيقة في تحريك همم المتلقين إلى الاقتناع بمضمونها، كما يستمد القول حجاجيته على مستوى الاستبدال، من تداخل آليتي الادعاء والاعتراض، فحين تدعي الاستعارة تماثلا وتداخلا وظائفيا بين المستعار له والمستعار منه، هناك ذوات تنكر هذا التوافق، لذا عدت الاستعارة الاستبدالية، لونا من الكذب والغموض، حتى قيل إن " من يقوم بالاستعارة فهو في الظاهر، يكذب، ويتكلم بطريقة غامضة، وهو بالخصوص يتحدث عن شيء آخر، مقدما معلومة ملتبسة "[٣].

وهذا الالتباس تعزى إليه – في الحقيقة– فضيلة حجاجية، وهو أنه يرجئ اعتراض المستقبل على الحكم الذي جاءت به الاستعارة، لاسيما وأكثر الصور

---

[١] اللغة والخطاب ، عمر أوكان : ١٣٤ ، إفريقيا الشرق ، بيروت ، ٢٠٠١م.

[٢] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : ٢٣٣.

[٣] السيميائية وفلسفة اللغة ، امبرتو إيكو : ٣٨ ، ترجمة أحمد الصمعي ، المنظمة العربية للترجمة ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م.

الفنية في القرآن أتى بها النص عند " إثارة القرآن لقضايا هي محل إنكار الخصوم واعتراضهم ومرائهم "[١] .

أما فعل التأثير الداعم لفعل الحجاج، فيغدو مداره، على هذا المستوى، لعبة الهوية والاختلاف ضمن أسلوب بلاغي ذي وظيفة مزدوجة تجمع بين المستعار والمستعار له حيث يمكن أن تعد الاستعارة من تقنيات الحجاج التي توظف لإدماج عنصرين مختلفين وإيهام المتلقي بأن لهما هوية واحدة وبفضل هذه " المطابقة يصبح المخاطب في وضع لا يمكنه الشك في الحكم الذي تثبته الاستعارة "[٢]، وإن كان التناسب البلاغي الحجاجي لا يفرض تساوي العلاقتين ولكنه يؤكد وجود المشابهة .

وتعد الاستعارة – عبر الاستبدال – عملية استدلالية بالدرجة الأولى ولاسيما وأن الوصف المنطقي للاستعارة يركز على هذا البعد الاستدلالي ما دامت تقوم على عملية حمل صفة لموضوع ما لم تكن له أصلا ." إن الاستعارة من حيث التركيب المنطقي هي نوع من القياس إلا أنه قياس مختزل وبعبارة أدق قياسي إضماري"[٣]، لأنه بينما يعتمد القياس المنطقي على مقدمات ترسم الطريق إلى النتائج، فإن الاستعارة تعد تدليلا طبيعيا، حذفت مقدمتاه وبدت النتيجة، ومن ثمّ فهي حجاجية باعتمادها على الإضمار في عملية الاستدلال، حيث يمكن اعتبار المقدمتين الغائبتين حجتين للنتيجة المعلنة، كما أن إنجازها من ناحية أخرى يُعدّ انحيازا لقياس طبيعي حيث تتجاوز الاستعارة بقدراتها الاستدلالية حد الإقناع لتصل إلى إدراك وظائف الاستدلال وأهمها إثبات صدق القضايا .

---

[١] الحجاج في القرآن : ٥٧٩ .

[٢] الحوار ومنهجية التفكير النقدي ، حسان الباهي : ١٠٣ ، إفريقيا الشرق ، بيروت، ٢٠٠٤ م.

[٣] المجاز والحجاج في درس الفلسفة والصورة ، شوقي المصطفى :٢٣ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١، ٢٠٠٥م.

ولعل القيمة الحقيقية للاستعارة الاستدلالية في الخطاب، كونه يكتسب بوجودها قدرة على تكثير عباراته، وكذا التجديد في الأدلة والشواهد السائدة في تقويم الأحداث والسلوك، مما يجعل المخاطب يقبل على الخطاب سمعا واقتناعا وإذعانا ومن ثم نهوضًا إلى العمل .

كما أن الجانب الاستدلالي في الاستعارة " لا يورث المتكلم القدرة على تكثير عباراته فحسب، بل يولده القدرة العجيبة على تكثير ذواته الخطابية "[١].

ومن هنا فإن دورا حجاجيا تؤديه الاستعارة على مستوى الانزياح الاستبدالي، يجعل المتلقي طرفا مشاركا في تأويل أبعاد الاستعارة الدلالية وتوجيه قراءتها النصية، فالاستعارة كعملية عدول أو انحراف تفتح الباب أمام المتلقي لممارسة التأويل وتتيح له وظيفة المشاركة والانفتاح حيث يؤدي التباين القائم بين طرفي الاستعارة إلى خرق المألوف وإثارة الدهشة مما يعطي النص قدرا كبيرا من الروعة والانجذاب، فكلما ابتعد طرفا التشبيه والتقيا في نقطة غريبة لا يعهدها الذهن، كلما يظهر نصيب كبير من الانزياح ارتقاء في مستوى النص الدلالي ويروح يعلو شيئا فشيئا على درجة الصفر النصية "[٢].

وإذا سلمنا بقدرة الاستعارة من خلال آلية الاستبدال على إدراك جملة من الوظائف الحجاجية، وفق لون من العدول الجدولي، فإن ثمة وظائف حجاجية أخرى تدركها الاستعارة عبر لون من العدول النسقي تتسع جراءه فاعلية الحجاج على مستوى الصورة .

ذلك أن الاستعارة ليست تحويلا أو نقلا لفظيا لكلمات معينة، وإنما هي كذلك تفاعل بين السياقات . على أساس أن النغمة الواحدة في أية قطعة

---

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن : ٢٩٥ .

(٢) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، محمد ويس أحمد : ١١١: ١٢٠ المؤسسة الجامعية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥ م.

موسيقية لا تستمد شخصيتها ولا خاصيتها المتميزة إلا من النغمات المجاورة لها " [١]، حيث تنتج الاستعارة من التفاعل بين بؤرتها والإطار المحيط بها، فيكشف السياق عن فاعلية الاستعارة، ويرد إليها قيمها الخفية، ومعنى الفاعلية لا يدرك إلا إذا أدخلت الاستعارة في مساقها أو بيئتها الطبيعية" [٢].

وتنتمي الصور الاستعارية في القرآن إلى بنية خطاب كبرى، لتتبعث دلالاتها ضمن نسق العلاقات الرابطة بين أجزاء تلك البنية الكبرى، حيث الصورة الاستعارية مجرد عنصر تكويني يسهم في بناء وحدة تكاملية متآزرة الأجزاء هي الصورة الكلية . وحيث يمكن القول إن البنية الكلية هي الأساس في فهم الصورة الاستعارية، وفق مبادئ الاتساق والانسجام النصيين، وحيث تربط النظرية الحجاجية القول بالوظيفة أو المقصدية أو المقام السياقي التداولي. ومن ثم لا يعتمد تسلسل الأقوال والجمل في الخطاب المعنى الإخباري، وإنما يعتمد بالأساس على المعنى الحجاجي أو القيمة الحجاجية للقول .

حيث يمكننا – أحيانا – تبين أهداف الصورة وقيمها الحجاجية عبر استراتيجية تلميحية [٣] يحققها تأويل الخطاب الذي يصنع مجموعة متوافقة –

---

[١] بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، :١٩٢ ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط١ ،١٩٩٦م .

[٢] الصورة الاستعارية وجمالياتها في القرآن الكريم ، سيدي محمد طرشي :١١٨ ، أطروحة للماجستير ، جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان ، الجزائر ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، العام الجامعي ٢٠٠٥/٢٠٠٦ م.

[٣] وتعرف الاستراتيجية التلميحية بأنها " الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي لينجز بها أكثر مما يقوله ، إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى

وإن كانت متباينة – من التأويلات التي تستبطن زوايا النص، تكون على درجة من السعة تسمح بصناعة شبكة من القراءات للنص، تتقاطع ولا تتعارض. وحينئذ تصبح ضمانة صحة التأويل الإجابة عن سؤال واحد : ما الذي يلح عليه الخطاب ؟ .

ذلك أن البحث في سياق كل استعارة ينتج في حالات إيجابية مجموعة من المفاتيح تتعلق بتفسير المفهوم الاستعاري وتأويله، ومثل هذه المفاتيح ربما تحل الكثير من مشكلات الغموض، حتى لو لم تكن هناك مبادئ عامة للتفسير من خلال السياق"[1]، وعلى هذا المستوى أيضا، تكمن النجاعة الحجاجية للصورة القرآنية، في استمدادها من ظاهرة دفع المتلقي إلى الإسهام في إنتاج قسم من كلام الصورة هو القسم الضمني انطلاقا من القسم المصرح به.

لنمض – وفق ما تقدم– إلى تقويم الاستعارة بمادة الذوق في الخطاب القرآني، لنحقق وجاهة انتخابها في موضعها دون سواها من مواد اللغة، ولنتبين في جلاء حجاجية تلك المادة البلاغية، حيث تنخرط الصورة في نظام نصي شكلي ومضموني، يجعل حجيتها نابعة من الصورة ذاتها على محور الاستبدال، ومن قدر الانسجام مع العناصر النصية، بالتوافق مع مقاصد الخطاب، حيث يغدو الملفوظ الاستعاري موسعا، فتصيب الاستعارة معان غير محددة، اتكاء على السمات الدلالية في المعجم الذهني المشترك بين المرسل والمرسل إليه، وحيث يتم إعمال قانون الانتقاء الحجاجي بصورة فعالة .

الحرفي لخطابه ، فيعبر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق " استراتيجيات الخطاب : ٣٧٠ .

[1] نقلا عن : الصورة الاستعارية وجمالياتها في القرآن الكريم : ٢٢ .

ومن ثمّ يمكن للاستعارة بمادة الذوق أن تدرك وجوها حجاجية وفق اعتبارات عدة، ومنها :

(١) مادة (ذوق) في المقام

تتسع دائرة استيفاء الدلالة ووجوه حجاج مادة (الذوق)، وذلك لأن اللغة ليست نظاما أو نسقا مستقلا عن الإنسان والثقافة والتاريخ، بل هي كما عرفها ابن جني " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "، فهي فعل اجتماعي بقدر ما هو لغوي، يتجاوز نسق الجملة إلى مستوى النص، ليصبح خطابا تتعالق فيه عناصر المقاربة التداولية، لاسيما السياق والمقام والمقاصد حيث يمكن الكشف عن قصدية المتكلم .

ومن هنا يتم استخلاص وظيفة الخطاب الحجاجية بالاستناد إلى التسلسلات الخطابية التي تنطلق من الوقائع التي تحيل عليها الأقوال، وبنية هذه الأقوال، والمواد التي يتم تشغيلها، لتتشكل بنية الحجاج فيما بين المكون اللغوي، والمكون البلاغي، وينجز الخطاب حين يتم ربطه بالظروف المقامية .

حيث يستثمر المرسل كفاءته التداولية عند إنتاج خطابه باستعمال الاستراتيجية التلميحية مدركا أن " هناك طرقا عديدة لتقول شيئا ما وأنت تعني به شيئا آخر" [١]، فتنخرط الاستعارة ضمن آليات تلك الإستراتيجية لتعبر عن إرادة المرسل أو معانيه، دون أن يصرح بها مباشرة اعتمادا على حيازة المستعار منه لأكثر من صفة، جمعها لفظه في إيجاز وتجسيد للقصد وهنا " تجسد الاستعارة مثالا جوهريا لاستعمال اللغة، إذ يدرك منها عادة، معنى مقصودا يقع وراء البنية المنجزة للملفوظ أو الجملة " [٢]، ويرى جيرالد أنطوان

---

[١] نقلا عن : استراتيجيات الخطاب : ١٣٨.

[٢] السابق : ٤١١ .

أن الصورة وسيلة إيحاء تلميحيه غير مباشرة"[١]، فالمتكلم يصنع أفكارا (أشياء) داخل كلمات (أوعية) ويرسلها (عبر مجرى) الى مستمع يخرج الأفكار/الأشياء من كلماتها /أوعيتها "[٢].

وانطلاقا من هذا، فثمة قاعدة منطقية تحركت بموجبها استعارة(الذوق) حجاجيا في الخطاب القرآني، مفادها أن هذه المادة ترد إحالة وتذكيرا بذوق سالف أو تال (فثمة ذوق ينجم عنه فعل الذوق في السياق القرآني)، هناك من ذاق أو أذاق فحق أن يذوق أو يذيق .

يعيدنا هذا التأويل إلى النظر في المعنى المعجمي لمادة (ذوق) ودلالتها على العارض " ذاقه ذوقا وذواقا ومذاقا ومذاقه : اختبر طعمه "[٣]، ولأن العارض مما يقتضي وجود سابق له ولاحق عليه، فكل "ذوق" في الخطاب القرآني نجم عن ذوق سالف أو مهد لتال، أو كليهما معا .

قوله تعالى " كل نفس ذائقة الموت " توجيه بلفظ (الذوق) للمعنى الحسي المروم للذوق كونه من مقدمات الأكل . و على الرغم من أن التذوق هو من مقدمات الأكل الذي يعتبر الوقود لصحة الجسد إلا أنه يتخذ دلالة أخرى مناقضة لهذا التذوق المادي الدنيوي، فينحو منحنى دلاليّا معنويّا وهو ذوق الموت، وذوق الموت إلغاء للذوق الدنيوي من الطعام والشراب تمهيدا لاستقبال ذوق جديد .

---

(١) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، يوسف أبو العدوس :٢٧ ،الأهلية للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،ط١ ، ١٩٩٧م

(٢) الاستعارة التي نحيا بها ، جورج لايكوف ومارك جونسن ، ترجمة عبد المجيد جحفة : ٣٠ دار توبقال للنشر ، ط٢ ،٢٠٠٩ م.

(٣) القاموس المحيط ، باب القاف ، فصل الذال : ٨٨٥ .

" إن هذه الاستعارة خلعت طابع الذوق على الموت، خلعت سمة تتصل بعملية الأكل على ظاهرة تتصل بنهاية عمر الإنسان، تتصل بالموت . إن وراء هذه الاستعارة أسرارا فنية خلعت عنصر التذوق للموت، مع أن التذوق للطعام والشراب، وهو وسيلة الحياة، حيث إن النص جعله وسيلة للموت "[١].

مادة " الذوق " هنا إذ تحيل من جانب إلى ذوق سابق للموت، فإنها من طرف آخر تحيل إلى ذوق تابع وهو ذوق الآخرة، باتكائها على دلالتها المعجمية وعلى طبيعة استعارتها الميتة، كون الذوق اختبار للطعم فيما يقل تناوله، وكونه مقدمة للأكل . ليغدو ذوق الموت على ذلك اختبارا لطعم يذاق بعده طعم .

فالاستعارة بالذوق، في اتصاله بالموت، إحالة إلى ذوق مضى حيث إن " ذوق الموت يقتضي سبق الحياة"[٢]، مع ما يقتضيه هذا الذوق السالف بذوق الموت من المحاسبة والجزاء، " ومن يجوز عليه ذوق الموت يجوز عليه ذوق النار"[٣] .

فالصورة على هذا النحو، تقوم مقام الحجة وتعوضها تبعا لحال المخاطب، لأن الصورة هي التي تعبر عن حال المخاطب، وعن أحاسيسه، وعن شتى المعاني المراد إيصالها إليه، في مقام التنبيه، حيث يحمل النص بقوة إنجازية سياقية هي الوعد أو الوعيد، ليستند النص في حجاجه على البناء اللغوي وما يثيره لدى المتلقي من تداعيات كثيرة، قد تخاطبه وجدانيا وعاطفيا، أو تكون عنده تركيبا إشاريا يستطيع به

---

[١] لغة القرآن الكريم ، عبد الجليل عبد عيسى على الرحيم :٤٤ ، مكتبة الرسالة الحديثة ،ط١ ، عمان ١٩٨٣ م.

[٢] التحرير والتنوير : ٦٤/١٧.

[٣] نظم الدرر : ١٥ /١٤٥.

أن يلج باب العمليات المعرفية "[١] ، فتتجلى الوظيفة الحجاجية التي للصورة القرآنية في بناء شيء على شيء، أي بناء غير المسلم به على المسلم به، وبناء غير المعلوم على المعلوم، وبناء المعنى على موضع مشترك بات يمثل رصيدا استعاريا، وبناء غير المدرك والمتغافل عنه والعازب عن الذهن على المدرك والمألوف والذي هو في حيز المشاهدة" [٢] .

ومثل هذا التعالق بين ذوق وآخر يطالعنا على مدار الخطاب القرآني بمادة " الذوق " . فذوق المعصية، وذوق الفتنة، وذوق كنز المال ... وإذاقة المسلمين الألم .. يعقبه جميعا ذوق العذاب في مقام الوعيد للانتهاء ، وذوق الرحمة يتلوه ويسبقه مس الضر في مقام التنبيه والتذكير.

حيث تتكئ كلمة (ذوق) في حركتها الحجاجية على ظهور لون من المقتضى فيها، من شأنه أن يسم الملفوظ بميسم دلالي وحجاجي خاص، وعلى عالم خطاب المتلقين من ناحية أخرى، وقد شاع بين العرب التعالق بين ذوق وآخر، ومن أشعارهم:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر... من الغيظ في أكبادنا والتحوب " [٣].

وقد تنبه الزمخشري في بادرة فريدة، إلى هذا اللون من الاتصال بين ذوق وآخر، في تأويل يركن إلى بناء المعاني في خطاب يخلو من الروابط الحجاجية، حيث ينبني الحجاج على تأويل النص الذي هو بناء للمعنى

---

[١] الأسلوبية اللسانية ، أولريش بيوشل ، ترجمة خالد محمود جمعة :١١٧ ، مجلة نوافذ العدد ١٣ ، ٢٠٠٠م.

[٢] الحجاج في القرآن : ٥٧٩ .

[٣] ذكر الفروق بين الحروف الخمسة ، ابن السيد البطليوسي النحوي : ١٠٢ ، تحقيق علي زوين ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، مطبعة العالي ، بغداد ، العراق .

واختراع للدلالة وفق المقصد ومقتضيات المقام [١]، ففي تفسيره لقوله تعالى " لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ " [آل عمران:١٨١] يقول : " (ونقول) لهم : (ذوقوا) وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة : ذوقوا (عذاب الحريق) كما أذقتم المسلمين الغصص . يقال للمنتقم منه : أحس وذق"[٢].

فمثل هذا الخطاب بمادة (ذوق) يحمل منظورًا حجاجيًا، أي أنه يميل إلى اقتراح قيم معينة، واتخاذ موقف من داخل موقف في محاولة للإقناع والحث على صائب العمل ، وذلك في إطار استراتيجية تلميحية يتجاوز بها المرسل المعنى الحرفي ، لينجز القصد مستثمرا عناصر السياق .

وفي مواضع العذاب في الخطاب القرآني، يرتكز السياق على التتابع والترتيب المنطقي بما يحمل من أدلة وحجج سببية جامعة بين ذوقين، فكثيرا

---

[١] و في الموضع الفريد الذي ورد فيه فعل الذوق في القرآن الكريم على سبيل الحقيقة ، في قوله تعالى "فلما ذاقا الشجرة" . يحمل الذوق الإشارة إلى ذوق سالف وتال ، فآدم عليه السلام ، ما ذاق الشجرة إلا بعد أن أمكن الشيطان منه فأذاقه الفتنة (فدلاهما بغرور) ، ومن ثم فآدم ذاق بعد أن ذاق ، ثم إنه ذاق الألم بعد أن ذاق الفتنة (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ) (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) ، وإبليس ذاته ذاق طعم المعصية وذاق عواقبها (وقد تكرر طرده من الجنة مرات أربع في سياق سورة الأعراف) ، فأذاق الفتنة لآدم وذريته (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) .

[٢] الكشاف : ٢٠٩/٤ . وفي تفسير البيضاوي : ٥٢/٢ " (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أي ننتقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق ، وفيه مبالغات في الوعيد ".

ما كانت سياقات الفعل تلاقيا لثنائيات متلازمة تجمع بين العذاب وسببه حيث تدرك هذه الثنائية – في أعلي درجاتها – في غياب الرابط الحجاجي السببي في مثل قوله تعالى : " يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون " [العنكبوت:٥٥]، ومثل قوله تعالى : " أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون "[الزمر:٢٤]، " والمذوق هو نفس ما كانوا يكسبون مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم وأن الله عادل في تعذيبهم "[١]، ففي هذا الإطار يستدل على استحقاق العذاب بتعليقه بالعمل حيث يصير الجزاء هو عين العمل . فينتج الذوق من الذوق .

وقد تكرس الثنائية : سبب/نتيجة، عبر رابطي الحجاج : باء السببية، أو لام التعليل، اللذين يحيلان على النتيجة، أو عبر " فاء التفريع " الحجاجية، فيستخدم الخطاب آلية الوصل السببي أو التعليلي بصورة مباشرة، بفعل الرابط الدلالي التداولي بين الأسباب والمسببات، فيجتمع الذوقان عبر حجاج سببي .

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى " وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ "[الأنعام:٣٠]، " والفاء للتفريع عن كلامهم، أو فاء فصيحة، أى إذا كان هذا هو الحق فذوقوا العذاب على كفركم، أي بالبعث – والباء سببية، و" ما " مصدرية أي بسبب كفركم، " أي بهذا " [٢]، حيث تموضع الرابط

---

[١] التحرير والتنوير : ٣٩٤/٢٣.

[٢] التحرير والتنوير : ١٨٨/٧ وفي نظم الدرر : ١٨٨/٧[أي] تعدونه فائدة وثمرة لأعمالكم وتصرفاتكم ".

الحجاجي قبل النتيجة أو قبل السبب ليجيء في مواضعه مرتبطا بالحجة معللا ومفسرا وضامنا لسلامة النتيجة المطروحة .

والحجاج الذي تكرسه هذه الثنائيات قضوي يشمل المحمولات والموضوعات ضمن نسق استدلالي، ما كان لينتج حججه كاملة إلا بفضل تجذر مادة "الذوق" وتوغلها في المقام .

(٢) إحالة الاستعارة إلى وظائف آلة الذوق

انطلاقا مما سبق، نلتمس أداء فريدا لاستعارة الذوق، خاصة في باب العذاب، حيث استخدمت مادة الذوق، الذي أصل آلته اللسان، إحالة إلى أقوال اتخذها الكافرون شرعة ومنهجا وسبيلا، تطاولوا بها على الله ورسوله وكتابه المبين، فافتأتوا على الله، وجحدوا آياته، وشككوا في كهنه وصدق رسالته ورسوله ...

ففي هذا النظام الدلالي لفعل (الذوق) وما في حقله الدلالي، يغدو اللسان، وهو آلة الذوق، وما يبدر عنه من إساءات القول أدعى إلى جزاء موافق للعمل وهو ما حققه الخطاب القرآني، عبر حقل " وظائف اللسان ".

حيث تتبع الحجة ضمن نسق استدلالي من خلال نسيج من الألفاظ التي تنسج فيما بينها شبكة دلالية يرتبط بعضها ببعض، وتبرز العلاقة بين الألفاظ ودلالتها، ومرجعيتها في العالم المحيط بالإنسان . ويصبح المتلقي حيال قطاع دلالي مترابط تؤلفه مفردات اللغة، حيث " الكلمات المكونة للحقل الدلالي ترتبط بموضوع معين وتعبر عنه "[1]، فإنه وفق نظرية الحقول الدلالية " لكي

---

[1] أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية ، أحمد عزوز : ١٣ ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٢ م.

يقول ابن رشد " وأما اللسان فالأمر فيه بين إنه إنما أعد نحو فعل الذوق ، وإن كان مع هذا يصحب فيه أمر آخر من جهة الأفضل ، وهو أنه الذي يتهيأ به تقطيع الحروف " الكليات

تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا "[١]، فالجمع في الحقول الدلالية يقوم بتصنيف الألفاظ وجمعها تحت عنوان، ومن ثم يعمد الدارس إلى البحث عن الخلفيات الدلالية التي تتوارى خلف استعمال المجموعات .

وعند تحليل استعارة مادة (الذوق) يتجه الذهن إلى دلالة هذا اللفظ المستعار الخاضع للمجاز في محاولة لاستكناه حجية ترجيحه في المقام، ليقف عند لون من الدلالة التي يفرضها السياق مقالا ومقاما، ذلك أن " العقل في المجاز إذ يجوب الحقل الدلالي للكلمة فهو يركز على إحدى وحدات الدلالات الصغرى، أي المهمة "[٢] .

ويتم اعتماد دلالة الذوق من خلال بنية الخطاب الكلية، حيث تصب مجموعة من المتتاليات بتضافر مطرد حسب متطلبات الخطاب، لنصل من

في الطب مع معجم بالمصطلحات العربية (كتاب الصحة،محمد بن أحمد بن رشد :١٩٤، سلسلة التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، مركز دراسات الوحدة العربية . وقد تناول اللغويون أفعال اللسان في جانبي الذوق والكلام ، وبذلك يلتقون مع آراء الفلاسفة في بيانهم الدلالة الأصلية الخاصة بتلك الجارحة ، مع تركيز اللغويين على الجانب المجازي لأفعال هذه الجارحة ، خاصة أن ألفاظ أفعال جارحة اللسان في القرآن الكريم كثيرا ما انتقلت إلى الدلالة المجازية " ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم (دراسة إحصائية دلالية) ، رسالة ماجستير ، سهام محمد أحمد الأسمر : ٢٢ ، كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ،٢٠٠٧ م.

[١] علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ٧٩ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٣ م .

[٢] الاستعارات التي نحيا بها ، لايكوف وجونسون ، ترجمة عبد المجيد جحفة : ١٦ .

خلال البحث والتنقيب وعمليات الربط والتحليل إلى اكتشاف البؤرة المركزية التي تحيل إليها الملفوظات، في إطار قانون(انتقاء الألفاظ لغاية حجاجية) . وبالنظر إلى النصوص التي يرد فيها الفعل في مواقع العذاب، وعقد الصلات بينها وبين الأجزاء اللغوية للسياق، مع اقتران بالسياق غير اللغوي ممثلا في ظروف النص وملابساته الخارجية التي تشتمل على الطبقات المقامية المختلفة والمتباينة التي ينجز ضمنها النص وينتهي ضمنها المظهر الخطابي ذو الرسالة اللغوية في مقام معين، يتم التقاط وجه الحجاج اللغوي لمادة (ذوق)، عبر تحليل الملفوظات اللسانية وتأويلها، ضمن سياقها التلفظي الداخلي وسياقها الخارجي، في غياب الروابط والعوامل الحجاجية المباشرة، بحيث يعد حجاج الفعل، على هذا النحو، قائما على النتيجة، حيث سياق الحدث ومقامه التناصي يحيل إلى أقوال من قبيل الكذب والتكذيب والافتراء.

ففي سياقات العذاب، يطالعك هذا التعالق بين أقاويل الكافرين بلسانهم وعقابهم بذوق العذاب، حيث يرتبط فعل الذوق ارتباطا وثيقا بمواقف التكذيب والإنكار .

في سورة الأنعام [الآيات : ٢٩ : ٣٠] " وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ "، وفي [الآية : ١٤٨] من السورة ذاتها " سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ "، وفي سورة التغابن [آية :٦:٥] " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ "، وفي سورة النبأ [الآيات ٢١ :٣٠] " إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِّلطَّاغِينَ مَآبًا، لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا، لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا، جَزَاءً وِفَاقًا، إِنهم كانوا لا يرجون

حساب، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا " الآيات[٣٠:٢١] وفي تفسير تلك الآيات " فذوقوا " مسبب عن كفرهم بالحساب فتكذيبهم بالآيات"[١]، يقول ابن كثير " فلم يكونوا يعتقدون أن ثم دارا يجازى فيها ويحاسبون، كما كانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة " [٢] .

وإلى مثل ذلك من سقطات اللسان ما يومئ إليه قوله تعالى في سورة النحل [آية:٩٤] " وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "، " (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) خديعة وفسادا (بينكم) فتغرون بها الناس، فيسكنون إلى إيمانكم، ويأمنون، ثم تنقضونها "[٣] .

ولعل شيئا من هذا الباب قد أدركته الاستعارة في قوله تعالى " ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ " [الدخان : من الآية ٤٩] " أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا على ما كان يزعمه " [٤]، وفي الجامع لأحكام القرآن " وقال عكرمة : التقى النبى صلى الله عليه وسلم وأبو جهل، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله يأمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى " فقال : بأى شيء يهددني والله

---

[١] تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي : ٤٠٦/٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣ م.

[٢] تفسير القرآن العظيم ، الحافظ عماد الدين بن كثير : ٤٩١/٤ ، دار السلام ، الرياض ،ط١.

[٣] تفسير البغوي (معالم التنزيل)، محمد أبو الحسين بن مسعود البغوي ،المجلد الخامس :٤٠/١٤ .دار طيبة للنشر و التوزيع ، الرياض.

[٤] تفسير البيضاوي : ١٠٤/٥ .

ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إنى لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه "[١] .

فثمة علاقة هنا بين مادة "الذوق" وزلات اللسان تدرك وفق معايير دلالية بإدراك المعنى العام الرابط بينهما وهو " وظائف اللسان "، حيث يجتمع مفهوما : الذوق، وسقطات اللسان، تحت مركزية " وظائف اللسان " ضمن علاقة اشتمالية .

ومثل هذا الترابط الدلالي الجديد يخرج مادة "الذوق" عن قيمها الحجاجية التي تعتمد الاستبدال، لتؤدي دورا جديدا على خلفية البعد المجازي في علاقته بالسياق، تتحرر فيه مادة "الذوق" من حالة التبادلية مع "اللمس" لتكرس حجاجا جديدا عبر الحقل الدلالي أو العالم الأصلي، فيتم إدراك الحجاج في محيط اللسانيات الحجاجية باعتبارها اتساقا بين الجمل والملفوظات، حيث يدرج الربط بين الجمل المتباعدة ضمن خاصية " تضافر النص " أو الربط عن بعد "

حيث استعارة (الحضور) تحيل على شيء آخر مذكور في السياق، فتغدو فعالة بقدر ما هي موحية كون التناسب أشد فاعيلة في الإقناع، فالاستعارة بالذوق هنا حجاجية، بقدر ما ترتكز على مستعار يجسد الجزاء وفي الوقت ذاته يكشف عن علته، ما يزيد طاقة الإقناع عن طريق دعم قوة اليقين في تحقق الجزاء واستحقاقه، فورود مادة "الذوق" على هذا النحو ضمن الاستعارة مما يعضد الصورة الكلية ويعلل لعقاب يذوق فيه اللسان الذي خاض في التكذيب والافتراء وزلات القول مرارة العذاب، كما ذاق فاستمرأ طعم المماراة والكذب والتكذيب .

وحجية الاستعارة في هذا الباب تتخلق من قدرتها على الإيماء والإيحاء واعتمادها التلميح بديلا عن التصريح، كون الإيحاء تلك الطاقة المعنوية المتولدة عن الأبنية الفنية للصورة الجزئية في إطارها الكلي، وحيث تعد

---

[١] الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٣٥، ١٣٦ .

الاستعارة على هذا النحو لونا من التلخيص والإيجاز الذي لا يركن للفظ وحده بل يراعي علاقات قوية دقيقة بين أشياء تحتاج في التعبير التقريري الى عبارات لتفصيلها.

(٣) حضور المعنى الحقيقي للذوق عبر الطرح المجازي

ذلك أنه سبحانه حين يستخدم التصوير بالذوق، وقد قصد من ذكره قوة الإدراك والشعور، يجعل من بلاغة إيراده أن يقدم أو يؤخر عليه أحيانا بذكر المذوقات الحسية من المطاعم والمشارب، أو يستنطق السياق المعنى الحسي للذوق دون ذكر المطاعم أو المشارب، وذلك إعلاء وتثبيتا لقيمة إدراك المذوق .

ومرجع الحجة في ذلك أن " الذي يحاجج لا يكتفي بوصف أوضاع معينة، فهو يثير في الوقت نفسه معرفة بكاملها عند المستمع، فاختيار المفردات التي يوظفها، والمجالات الاستعارية التي يعتمد عليها، لن تعمل فقط على إحضار المعلومات التي يقصد إلى إيرادها، وإنما ستقوم كذلك بتلميع ما يريد بيانه، سواء بصورة إيجابية أو سلبية . وستحرك المشاعر وردود الأفعال عند المخاطب"[١].

ويمكن إدراك ذلك في الاستعارة بالذوق على وجوه منها :

(أ) أن يذكر في خطاب ذوق العذاب المقابل الحسي من طعام أهل الجنة، فيكشف عمق التقابل بين حالين، ضمن سياق بلاغي يعتمد لونا من التناسب البياني .

وأسلوب التقابل بنية لغوية بلاغية جمالية، وهو وسيلة من وسائل الإقناع والاحتجاج التي استخدمها القرآن الكريم، كونه يجمع بين قوة الإقناع العقلي

---

[١] نقلا عن الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو ، الراضي رشيد : ٢١٣ ، عالم الفكر ، عدد (١) ، مجلد ٣٤ ، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٥ م .

وجمال الإمتاع اللفظي، يقول ابن سينا " إن التقابل بين المعاني يدل على قوة منة المتكلم وحسن تصوره للمعاني، وإيراده إياها بالعبارة الحسنة "[١] .

ومن ثم فللثنائيات التقابلية وظيفة إكساب الوضوح للعبارة مما يجعلها أكثر جذبا إلى النفوس وهي مؤثرة بقدر جماليتها في الأداء، لأنها الإطار الذي يتجلى فيه الأثر النفسي في المتلقي، وتحفيز الذهن على التأمل من خلال إجراء التقابل بين متباينين، ذلك أنه بالضد تتبين الأشياء .

في صورة ص [٤٩: ٥٨] " هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ، جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ، وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ، هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ، هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ، هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ " [٢]، حيث " يبدأ المشهد هنا بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء، وفي السمات والهيئات : منظر " المتقين " لهم " حسن مآب " ومنظر " الطاغين" لهم " شر مآب " . فأما الأولون فلهم جنات مفتحة الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب، ولهم كذلك متعة الشباب في الحوريات وكلهن أتراب شواب، ... وهو متاع دائم لا ينفد وهو أبدا متجدد . وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكنه لا راحة فيه . فهو جهنم " فبئس المهاد " ! ولهم

---

[١] نقلا عن المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، أبو محمد القاسم الأنصاري السلجماسي ، تقديم وتحقيق علال الغازي : ٣٧٥ ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، ١٩٨٠م .

[٢] وتطالعك مثل تلك المشاهد في مواضع أخرى ومنها الآيات ٤٣: ٥٦ من سورة الدخان ، والآيات ٢١ : ٣٦ من سورة النبأ ..

فيه شراب ساخن وطعام مقيء، إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! ولهم أصناف أخرى من شكل هذا العذاب "[١] .

(ب) ألا يرتبط السياق قبل أو بعد مادة الذوق بألفاظ الطعام أو الشراب، وإنما يدرك معناها بجلاء مما اقترن بالذوق ذاته من ألفاظ تدل على المعنوي وتوطئ بالاستعارة للحسي، وهو لون من إبداع وبلاغة التلاقي بين لفظين وقد اندمجا بالاستعارة فقرئ من خلالهما المعنى الحسي .

ويرى العلماء أن من أفضل حجج الاستعارة تحويلها المجردات إلى محسوسات، حيث تجعل الغائب مشاهدا فتقوى الشعور لدى المتلقي بحضور الأشياء من أجل حمله على الاقتناع وللتأثير فيه "[٢].

يقول أحمد بدوي " ولهذا الميل القرآني إلى ناحية التصوير نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ... وحسبي الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في النفس ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكنا من النفس، وتأثيرا فيها "[٣] .

ويبدو ذلك أوضح ما يكون في آيات اقتران الذوق بالرحمة أو النعماء، وفي سورة يونس [آية: ٢١] " وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا "، وقد فسرت الرحمة في الآية وغيرها من الآيات المتشابهات، على أنها النعم الكثيرة، والخيرات المتوالية، ففي التفسير البسيط " يعني مطرا أو خصبا من بعد قحط وبؤس وفقر، قال أهل المعاني : قيل أذقناهم رحمة على طريقة البلاغة لشدة إدراك الحاسة "[٤].

---

[١] مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب : ٩٨.

[٢] الحجاج في القرآن : ٤٩٥ .

[٣] من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي :٦٥ ، در نهضة مصر ، القاهرة، د.ن.

[٤] التفسير البسيط :١٥٤/١١ .

وفي تفسير أبي السعود لقوله تبارك وتعالى : " وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي " [هود:١٠] " وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه"[١].

وتعلو قوة الحجة على هذا المستوى، بتحقيق الواقع الاجتماعي للمتلقين الأول للخطاب القرآني، وفى تاج العروس " ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم فكانوا يتأدمون(الصليب) وهو الودك . ودك العظام. يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها، ثم يجمعون الودك الذى يخرج منها ليتأدموا به "[٢]، وفي نهاية الأرب " ولم يكن فى استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم . لذلك عد أكله من علائم الغنى والمال"[٣].

كما يتسع نطاق تلك الحجة عبر الملازمة أو المصاحبة اللغوية بين الإذاقة والرحمة أو النعماء، وقد أعيد ذكرها مرات سبع في الخطاب القرآني، ليعكس هذا التصاحب أثر المجتمع في اللغة فهي " وثيقة الصلة بالإنسان وبيئته وتظهر المجتمع الإنسانى على حقيقته "[٤]، ولذا فقد اعتمدت مثل هذه المصاحبات اللغوية على البيئة لأنها وليدة العادة اللغوية التي تقود إلى " اتفاق

---

(١) تفسير أبي السعود : ٤/١٩٠.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي : (صلب) ٢/٢٠٥، طبعة الكويت ، ٢٠٠٨ م.

(٣) بلوغ الأرب : ١/٨٧ ، نقلا عن المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : ٥/٨١.

(٤) فقه اللغة المقارن ، إبراهيم السامرائي : ١٦٩ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤، ١٩٩٧م.

أو اصطلاح المتكلمين باللغة "[١]، حيث للبيئة عامل السحر في تكوين قطاعات كبيرة من المتلازمات اللغوية .

وفي اقتران الذوق كذلك بوبال الأمر " فذاقت وبال أمرها " ما يدعو إلى التماس الحجة التي تستمد قوتها من استقرارها في عالم خطاب المتلقين .

والوبال في اللغة " ثقل الشيء في المكروه، يقال : مرعى وبيل إذا كان يستوخم، وماء وبيل، إذا لم يستمرأ، يقال : رعينا كلأ وبيلا، وقال أبو زيد : استوبلت الأرض، إذا لم يستمرئ بها طعام " [٢]، " ويقال كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضرا حلوا تهش إليه الإبل فيحبطها ويمرضها ويقتلها "[٣]، والذوق فيها " مستعار للإحساس بالكدر، شبه ذلك الإحساس بذوق الطعام الكريه، كأنهم راعوا فيه سرعة اتصال ألمه بالإدراك، ولذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام واللذات، وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة "[٤] .

وتتبع الحجة في هذه الاستعارة من تكرارها مرات أربع على مدار الخطاب القرآني في لون من المصاحبة التوافقية التي تبلغ عن معطى واقعي، تقتحم به الاستعارة عالم خطاب المتلقين الأول، والمقصود بعالم الخطاب هنا مجمل كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية ...التي يكون

---

(١) التحليل الدلالي إجراءاته ومناهجه ، كريم زكي حسام الدين : ٣٦/١ ، ٣٧ ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م.

(٢) التفسير البسيط :٥٢٨/٧ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٠٨/٢٨ .

(٤) التحرير و التنوير : ٥٠/٧ .

مضمون الصورة معتمدا عليها، بحيث لا يكون مضمون الصورة غريبا عنهم أو غير معلوم لديهم "[١].

لتستمد الصورة من المجال الحسي والواقع الاجتماعي حيث يتعالق مجالا الزراعة والحيوان، وكثيرا ما " يعتمد القرآن على استقاء مادة تصويره من الفضاء الاجتماعي الذي تنشط فيه مجموعة المتلقين الأول وتنسج مجمل علاقاتها الخاصة والعامة "[٢] .

وترد هذه التقنيات الحجاجية في سياق ما يسميه جرايس بالخطاطة التواصلية " [٣]، باعتبارها " تمثيلا خطابيا موجها نحو متلق، ومتعلق بما يدركه أو يتخيله حول واقع ما " [٤] .

ج) أن توجه الألفاظ الواردة في سياق مادة " الذوق " للمعنى الحقيقي فيه، ومن ذلك ذكر الرياح وهي منبئات المطر ومن ثم نبات فطعام، يقول تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ " [الروم من آية ٤٦]، فجعل الرياح بشرى، والرحمة ذوقا، فأمكن السياق من المعنى الحسي وجعل له مهيآت الشعور باللذة، كون المذوق من رحمة الله، وفي البحر المحيط " ثم ذكر من أعظم تباشيرها [الرياح] إذاقة الرحمة وهي نزول المطر" [٥] .

---

[١] الحجاج في القرآن : ٤٩٦.

[٢] السابق : ٥٢٠ .

[٣] نقلا عن الحجاجيات اللسانية ، الراضي رشيد : ٢١٣.

[٤] السابق : ٥٢٠ .

[٥] البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الاندلسي : ١٧٣/٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،١٩٩٣م.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [الروم:٤١]، " يعني قحط المطر وقلة النبات . قال أبوعلي : الفساد جاء في القرآن على ضربين، فساد معاقب عليه، وهو كثير . وفساد على غير ذلك، بمعنى الجدب، وهو المراد في هذه الآية ... " وليذيقهم الله بالجوع [١].

وحجية هذا التوجيه اللفظي للمعنى الحقيقي للذوق "، إدراك قدر النعم الربانية وقدر العقاب الرباني، حين يفيض العطاء أو يشيع الجدب، في مجتمعات طالما عاينت ظروفا صعابا في تحصيل المطاعم والمشارب، يقول محمد أحمد خلف الله : " إن تأثير المواد الأدبية في النفوس يستمد قوته من علاقة هذه المواد بالبيئة وباستعداد النفوس، وقد كان القرآن الكريم يلحظ هذه العلاقة التي يفرضها المجتمع ويقيمها بين الألفاظ والنفوس، أو بين الصور الأدبية والنفس البشرية عندما يختار هذه المواد ليعبر بها عما يريد [٢] .

وعلى ذلك يغدو للمخاطب دوره وإسهامه في إنتاج الخطاب الحجاجي، ونجاح العملية التواصلية . التي تعتمد المحيط الاجتماعي والمقام التاريخي، والمقصود بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، إنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي.

د) قد يوجد ذلك بعلاقة التلازم بين السبب والمسبب التي تستفرغ من السياق، وذلك من خلال تتبع كيفية اشتغال بعض التقنيات الحجاجية انطلاقا من البنيات اللغوية والدلالية والتداولية .

ومن ذلك ما شاع في سياقات ذوق العذاب، حين يرتبط بالمال كنزا له أو بخلا به أو اكتسابا له من حرام ... حيث المال أولاه الطعام، يقول تعالى : "

---

[١] التفسير البسيط :١٨/٦٩-٧١.

[٢] الفن القصصي في القرآن الكريم :٢٥٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ " [آل عمران :١٨١]، " والذوق إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال "[١] .

٤- الذوق تتمة في سياق مخاطبة الحواس

إذا كان الحجاج الذي أرسى قواعده بيرلمان وتيتكا يتجاوز حد الإقناع، ليصبح الغرض منه الحصول على الاقتناع الذي يغيب معه فعل الإجبار، فإن الاستعارة بالذوق على محور توجيه الانتباه، والتأثير في النفس، وإقناع الذهن، تصبح في أعلي درجاتها فى خطاب منشئوه الحواس، إذ لا شيء في الذهن ما لم يكن قبل في الحس .

فلا يمكن إنكار دور الحواس في العمليات المعرفية للإنسان، كونها قيما ومشاعر الإدراك، ومعطياتها منطلق التفكير والتدبر، فالحس أحد طرق تحصيل المعرفة الإنسانية، بل هو أصل المعرفة العقلية، إذ يعول عليه العقل لتحصيل وجوه الاعتبار والقياس والتعميم . فالحواس حين تخاطب وتستثار تخاطب مباشرة الأحاسيس والمشاعر، ثم تأتي عملية الإدراك حيث يقوم العقل بتنظيم المعطيات الحسية الواردة إليه عن طريق الحواس لمنحها معنى، من خلال تفسير ما تنقله الحواس وتحويله إلى معرفة .

ويتحدث سيمون دايك، في إطار الكفاءة التداولية، عن خمس ملكات أو قوالب تعول عليها القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة، ومنها الملكة الإدراكية حيث " يتمكن مستعمل اللغة الطبيعة من أن يدرك محيطه، وأن

---

[١] تفسير البيضاوي : ٥٢/٢ .

يشتق من إدراكه ذلك معارف، وان يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات وتأويلها" [١]

وترجح قيمة الحجاج القائم على الإدراك وفقا لقوانين التواصل التي تصف ما يستحسن فعله حيث " تتعادل الاستراتيجيات مع عملية اختيار أفضل الوسائل تأثيرا "[٢] .

كما يبرز دور حجاج الحواس بتجاوز التجاوب القائم على الشعور والإدراك إلى لون من التوجيه والتقويم، يقول جون لوك : " إن اليقين بوجود الأشياء الطبيعية عندما تشهد حواسنا بذلك لا يبلغ المدى الذي يمكن أن تصل إليه قدرتنا فحسب، بل يبلغ أيضا القدر الذي تحتاج إليه طبيعتنا، فهذا التأكيد

---

[١] قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي) ، أحمد المتوكل : ١٧ ، دار الأمان ، الرباط، ١٩٩٥ م. ويرى المتوكل أن هذه القوالب تنقسم إلى فئتين : قوالب آلات ، وقوالب مخازن ، وتضم الفئة الاولى القالبين النحوي والمنطقي ... في حين تضم الفئة الثانية القالب المعرفي والقالب الادراكي والقالب الاجتماعي " السابق : ٣٠ .

[٢] وفي نظريات المعرفة المبثوثة لدى علماء النفس والفلسفة ، يؤكد العلم الحديث على قيمة الحواس ، ففي الموسوعة النفسية " لا شك أن كل معرفة لا بد وأن تتضمن وجها عمليا ووجها نظريا ، ولهذا تدخل الحواس كإحدى الوسائط الهامة في اقتناص المعارف عن طريق اعتقالها واستيعابها ، حيث إنها تمد القوى الإدراكية بالقدرة على التعرف إلى الأشياء المحيطة بالإنسان والتي يزخر بها علمه الخارجي الذي يحيط به " في سبيل موسوعة نفسية ، مصطفى غالب : ٩-١٢/١٣ ، بيروت ، مكتبة الهلال .

بوجود الأشياء خارجنا يكفى لتوجهنا في اكتساب الخير وتجنب الشر الذي تسببه الأشياء، وهو ما يهمنا في معرفتنا إياه "[١].

وحين نتابع السياقات التي وردت فيها استعارة (الذوق) في الخطاب القرآني، نجدها لوحات ومشاهد قويت فيها عناصر الحركة والصوت والصورة، وارتكزت على خطاب الحواس، بحيث كان ورود فعل(الذوق)فيها متمما لهذا الخطاب [٢]، موقعا في النفس والعقل معا المعانى المراد إيصالها بأقصى درجات التمثل، وهذه إحدى طرق القرآن في المخاطبة بإثارة الحواس واستجماعها لاستقبال الدلالة، حيث الحواس هي بوابات التواصل، ومفاتيح التدبر والمعرفة .

يخاطب القرآن الحواس واحدة تلو الأخرى بالتداعي عبر أداء الصورة، ولا يتوقف التصوير القرآني عند إثارة حاسة البصر التي تكرسها مشهدية المواقف بل يتجاوزها إلى سواها من الحواس حتى يمتلك ناصية المشاعر و يستحوذ عليها بالكلية [٣]، لينفذ عبرها إلى زوايا العقل والتأمل، وذلك لأن " الموجود بالحس – وفق ما هو بديهي- لا يوصل- إلى المعرفة الكلية التي

---

(١) نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان ، فؤاد زكريا : ١٦ ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ١٩٧٧م .

(٢) الذوق أعم الملكات شيوعا في النفس ، فأنت ترى بعينيك ، وتسمع بإذنك ، وتشم بأنفك ، ولكن المذاق تشترك فيه كل الملكات .

(٣) وقد أثبتت النظريات التربوية الحديثة أن إشراك أكثر من حاسة في عملية التعلم يزيد من ثبات المعلومة في دماغ الإنسان أو عقله ، فالفكر هو من إنتاج عقل الإنسان ، ولا بد أن الفكر المبني على التجربة والمشاهدة هو الأثبت والأبقى من الفكر الذي يبنى على المجردات " ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم : ٣٥ .

يتطلبها التفكير، فالنفس العاقلة المفكرة لا تتعامل مع المحسوسات بطريقة مباشرة ولكنها تعتمد عليها لأدراك الأشياء، ثم تتأملها و تفكر فيها وتستنبطها وتضعها ضمن سياقها بتنظيم المقدمات والدلالة على ينابيع المعلومات، وبذلك تعلو على المحسوسات لتصل إلى غاية أعلى منها، فهي لا تهتم بإدراك المحسوس فحسب، ولكنها تنظمه وفق ما تريد وبحسب الخبرة التي يتلقاها الفرد في بيئته الطبيعية أو الاجتماعية "[١].

في كثير من السياقات التي وردت فيها الاستعارة بالذوق تخاطب الحواس عبر أداء الصورة، ومن ذلك قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا " [النساء : ٥]، فيبدأ الخطاب بإثارة حواس البصر واللمس والشم بقوله تعالى " نصليهم نارا "، وفي تنبيه هذه الحواس وإثارتها إثارة لصورة متخيلة لنعيم منصرم، وشاة مصلية، يزداد تركيز الصورة وتحفيز الحواس بالإتباع بـ "نضجت" [٢]، لتقوية حال النقيض (عبر ذاكرة الاسترجاع) حيث تعتمد الصورة على عمق العلاقة بين العربي وواقعه الاجتماعي إذ تشتمل التجربة على مصدرين للأفكار هما الإحساس والتأمل .

---

[١] التفكير واللغة ، جوديث جرين ، ترجمة د.عبد الرحمن عبد العزيز العبدان :١١٠،دار عالم الكتب ، الرياض :١٩٩٠ م.

[٢] الفعل نضج يرتبط لغويا بـ "نضج اللحم والتمر . وهذا أبان نضج العنب ، وهو نضيج ومنضج ، وقد أنضجته " أساس البلاغة ، الإمام الكبير جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري : مادة نضج ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان (د-ت) ، وقد تضمن معنى الاستهزاء والتشفي .

قوله تعالى : " نضجت جلودهم " لا يخاطب لمسا وحسب وإنما يخاطب اللمس والبصر والسمع والشم جميعا، ولا يخاطبها إلا وقد أحال إلى علة ذلك وهي (ذوق العذاب) بقوله " بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب "[١].

فعند هذا الحد من شدة العذاب تتداعى الحواس جميعا، فهذا صراخ المعذبين يسمع، ورائحة جلودهم النضيجة المحترقة تشم، وصورهم تتراءى أمام الأعين، وإحساسهم اللمسي بالاحتراق يدرك . يلاحق المضارع " يذوقوا " حالة الاستمرار والتوالي بالعذاب، فيجدد خطاب الحواس . وتكرس " كلما " حالة الدأب في المشهد، فتتحول حاسة الذوق بالمضارع الممتد وشدة الإدراك إلى حاسة تتحول إليها الحواس جميعا فتتصهر فيها وتذوب، ليعلو الشعور بها جميعا، وليغدو تضافر الحواس وعلوها باستعارة الذوق إعلاء للشعور بالخشية لدى المخاطب، وإثارة للنفور، فيغدو ذلك أوقع في باب الوعيد .

ومن طرق خطاب الحواس أيضا أن يستخلص الخطاب القرآني إحدى الحواس ويجعلها في مقابلة حاسة الذوق، بحيث يغدو فعل الذوق فيها لونا من الربط بين حاستين أحداهما سببا للأخرى، مثل ذلك ما نجده في مثل قوله تعالى : " قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ، مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس:٦٩.٧٠]، فثمة تلازم بين الكذب والافتراء وما يتبعهما من تحريك حاسة السمع، وفعل الذوق وما يعنيه من شدة العقاب بتحريك حاسة الذوق .

وقد يوجد ذلك بالربط بين حاستي البصر والذوق في مثل قوله تعالى " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

---

[١] وفى التفسير البسيط : ٥٢٩/٦ " قال أبو العباس : وحقيقته أن التبديل تغيير صورة إلى صورة أخرى ، وتبديلها تغيير صورتها إلى غيرها ، لأنها كانت ناعمة فاسودت بالعذاب ، فردت صورة جلودهم الأولى لما نضجت تلك الصورة " .

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [آل عمران : ١٠٦، ١٠٧]، حيث يتخطى اللون الظاهرة البصرية إلى لون من الدلالة الجمالية والذهنية والنفسية، وليصبح اللون عزفا بوتر على المدرك البصري خطابا للعقل والوجدان عبر رمزية اللون[١]، في اقتران بين اللون والجزاء، باعتبار مماثلة اللون للعمل .

وبمثل هذه الكيفية كان خطاب الحواس قادرا على إدراك التأثير في المتلقي، حيث تمثل الحواس قنوات المعرفة التي نطل من خلالها على الكون، ما أدى إلى تبني القرآن لغة حسية يعبر بها عن الوصايا والتعاليم في مواقف عدة لتلائم التعابير جمهور المتلقين وتؤثر فيهم .

٥- استعارة الذوق تكريس لحجاج عبر تراسل الحواس

تراسل الحواس يعني " وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أخرى"[٢]، عبر لون من الرمزية، تتجرد بموجبه المحسوسات من نطاق حسيتها وماديتها وتتحول إلى أفكار ومشاعر ــ وذلك باعتبار عالم الحس صورة ناقصة لعالم النفس البشرية الأغنى والأكمل .

وهو بناء لغوي بلاغي مصدره المجاز اللغوي الاستعاري، ووسيلة غنية في إنتاج الدلالات، فضلا عما يخلفه من الإثارة النفسية التي مصدرها تعدد

---

(١) اكتسبت الألوان وألفاظها إلى جانب دلالاتها الحقيقية دلالات اجتماعية ونفسية جديدة نتيجة ترسبات طويلة ، أو ارتباطات بظواهر كونية ، أو أحداث مادية ، أو نتيجة لما يملكه اللون ذاته من قدرات تأثيرية ، وما يحمله من إيحاءات معينة تؤثر على انفعالات الإنسان وعواطفه " اللغة واللون ،أحمد مختار عمر : ١٩ ، عالم الكتب للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٧م .

(٢) النقد الأدبى الحديث ، محمد غنيمي هلال : ٤١٨ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢م.

الحواس حيال المتلقي، حيث يتحقق استعمال أكثر من حاسة في الخطاب مما يفتح الباب أمام المخاطب لتأمل الخطاب وأبعاده .

فتراسل الحواس إذن " يعطى فرصة استثمار حاستين أو أكثر من خلال ذكر حاسة واحدة، مما يثري اللغة وينميها لفظا ومعنى، لأنه يعني ضمنا نقل مفردات حاسة إلى أخرى، وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسة الواحدة "[١].

والخطاب بتراسل الحواس حين يعمد إلى مزجها والربط بينها، يستقطب المتلقي، ويثير انفعاله النفسي، وينقله إلى أجواء الحدث النفسية، فنقل صفات الحواس إلى بعض " يساعد على نقل الأثر النفسي، كما هو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة" [٢] .

والتراسل إذ " يعني النأي عن السياق المألوف للمفردة المعبرة عن حاسة ما فينقل إليها مفردات حاسة أخرى"[٣]، فإن هذا يدل على اقتراب الصورة التراسلية من الصورة الغرائبية التى تغادر فيها الألفاظ مدلولاتها الحقيقية .

ما يريد الخطاب أن يدركه بالاستعارة التراسلية ليس الإطار الشكلي للظاهرة، بل إيقاع أثر نفسي على المتلقي، حيث يتركه الخطاب في منطقة التنقيب والبحث لفهم القيم خلف تبادل مدركات الحواس .

---

[١] ينظر : الصورة البيانية في شعر عمر أبي ريشة ، وجدان عبد الإله الصائغ : ١٢٢ ، (رسالة ماجستير) مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، بإشراف د .جليل رشيد فالح .

[٢] النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : ٣٩٥ ، القاهرة ، دار النهضة ، م١٩٧٣ .

[٣] الصورة الاستعارية في الشعر العربي ، وجدان الصائغ : ١٣٦ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

وقد سبق الخطاب القرآني الرمزيين الى استعمال هذا اللون من الأداء الفني للغة بغية تفجير طاقات المخاطب الخفية وحثه على التدبر والمعرفة .

وفي الآيات التي ورد فيها فعل " الذوق " يوظف القرآن هذه الحاسة للتعبير عن الإحساس اللمسي ويكثر هذا في مواضع العذاب، وذلك لأن حس الذائق لإدراك ما يذوقه قوي[١]، وليس الحس وحده الذي يجمع بين طرفي الاستعارة في القرآن ولكنه الحس والنفس معا بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى، والقرآن فى ذلك يرمي إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس" [٢]، ومن ثمّ فالاستعارة بتراسل الحاستين هنا ترمى إلى جمع طرفي الحس والنفس معا، فيرسم التعبير الصورة كما تقع على النفس فتحسها وتدركها .

وعلى ذلك فقد اعتمد القرآن التراسل ليوفي المعنى حقه، فثمة تناغم تام بين الحواس المساهمة في التصوير، حيث استدعى القرآن اللمس والذوق في مشاهد العذاب، ليجسد حجم المعاناة، حيث تتميز الصورة التراسلية بجماليات أهم بواعثها : الغرابة، والطرافة، وتعدد المستويات الدلالية، وتعميق التأثير "[٣] .

استعمال الذوق نيابة عن اللمس في الخطاب، جعل مدركات الحاستين معا في دائرة الضوء بالنسبة للمتلقي ليتأمل أبعاد التوافق وأوجه الاختلاف بين كلتا

---

[١] الذوق من جملة الإدراكات ، وهو أتمها ، والذائق للشيء هو من يتناوله للمرة الأولى ، ففي ذوق العذاب إذن معاناة متكررة دائبة حيث " يجمع فى العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه ، ويكون المدرك له لاعذر له يشغله ، وإنما هو علّى أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم " التفسير الكبير : ٧٢/٢٩ .

[٢] من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي : ١٩٢ ، دار نهضة مصر ، القاهرة (د-ن) .

[٣] بحث تراسل الحواس في ضوء القرآن الكريم – وظائف وجماليات – ، حميد عباس زاده ومحمد خاقاني ، أصفهان :٤٩ مجلة دراسات في اللغة العربية ، العدد ٢١ ، ٢٠١٥م.

الحاستين، بحيث نابت إحداهما عن الأخرى في الظهور، مما يوفر للمتلقي وعيا شاملا عميقا بفضل تتابع الصور، بحيث نقل الصورة من أغوار الحس إلى سمو العقل، بإعادة التعبير عن الحواس بصورة فنية، أخرجت الحواس عن أصل وظائفها .

وعلى هذا النحو يكمن الحجاج على مستوى التراسل فيما تنتجه عملية التبادل بين الحواس وصفاتها من إعادة تشكيل الحواس في الصياغة، مما يدخل الخطاب في دائرة العدول " وهذا العدول في الكلام القرآني ليس لقيمة جمالية أو لإكساب مسحة فنية وإنما غايته بالدرجة الأولى حجاجية، ومن مظاهر الحجاج الناجمة عن العدول إنشاء المقتضيات والمفاهيم، وتعليل الأحكام، وتوفير السند المنطقي للكلام، أو ما يسميه الحجاجيون " قانون العبور من المعطى إلى النتيجة "[١].

المستوى الثالث

الإيقاع

الإيقاع هو لون تكرار منتظم لبعض الحروف أو الكلمات أو النغمات، أو لجو نفسي خاص يلاحق السياق علوا وهبوطا، فهو حركة منتظمة "[٢]، ولون صياغة لأصوات اللغة " بحيث تتكرر في نمط زمني محدد" [٣]،تمتد بامتداد العاطفة والخيال، والنغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام، أي توالي

---

[١] الحجاج في القرآن : ٥٩١ .

[٢] موسيقى الشعر العربي(مشروع دراسة علمية) ، شكرى محمد عياد : ٥٣ ، أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع .

[٣] في الشعر والشعراء ، ت.س.اليوت ، ترجمة محمد جديد : ٤٢ ، دار كنعان للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٩١ م.

الحركات والسكنات على نحو منتظم " [١]، من علو الصوت وانخفاض نبره قوة وضعفا، وتردده في التركيب، بحيث ينتظم النسيج اللغوي للنص وينظمه.

نجلوه في الخطاب القرآني وقد هيأ هذا الخطاب لألفاظه نظاما ونسقا وجوا يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع . وأن تتناسق ظلالها وإيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه "[٢].

حيث يوظف الخطاب القرآني طاقة اللغة، بما تحوى من قدرات تصويرية وتنغيمية، لبلوغ أعمق مواطن التأثير في المتلقى، إذ غدت أصوات اللغة فيه صورة متميزة للتناسق الفني، ومظهرا من مظاهر تصوير المعاني، وعلامة من علامات إعجازه الأسلوبي والبياني .

ولم يكن لأسلوب الحجاج أن يسقط التأثيرات الموسيقية للتنزيل الكريم في خطابه، بل نجده يعدها دعامة ومرتكزا ومنطلقا إعجازيا، تؤسس له الظواهر والتلوينات المضمرة في تراتيبه الفونيمية التركيبية والفوق تركيبية .

ويعنى هذا الشطر من الدراسة بالكشف عن القيم الدلالية الدقيقة لموسيقى اللغة، وإبراز مكانتها واحدة من وجوه الحجاج في الخطاب القرآني، عبر

---

[١] دراسات في النقد العربي ، عثمان موافي : ١٣٧ ، دار المعرفة الجامعية ، ط٣ ، ٢٠٠٠ م ، ط١ ، ١٩٩٧م ، يقول جون كوهن عن الإيقاع : " إنه يجيء من تردد زمني يمتع الأذن برنينه ، ولا يسمى البناء بناء إيقاعيا إلا إذا اشتمل على تردد ولو بالقوة " بناء لغة الشعر ، ترجمة أحمد درويش : ١١٢ ، دار المعارف ، ط٢ ،١٩٩٣ م.

[٢] النقد الأدبي (أصوله- منهاجه) ، سيد قطب : ٤٥ ،دار الشروق ، القاهرة ، ط٨ ، ٢٠٠٣ م.

قراءة سياقية لمادة (الذوق)، للإبانة عما ضمنت اللغة من قدرة على الإبلاغ، من خلال دلالتي الحركة والإيقاع .

وذلك حيث تسخر حكاية الصوت والمناسبة الصوتية لبلوغ أغراض إيحائية قادرة على التأثير على وجدان المتلقي، حين يوظف الصوت لتوليد المعاني عبر المجاورة الصوتية، وما تنتجه من المقاطع، إضافة إلى الظواهر التكوينية الفوق مقطعية من السكت، والنبر، والتنغيم .

وحيث تتألف الكلمات المنظومة من " أصوات متتابعة ينزلق كل تابع منها عن سابقه، ضمن إطار موسيقي، لتكتسب هذه الأصوات بعدا دلاليا يتناسب مع السياق النصي " فلكل صوت إيحاءاته وقيمه الأسلوبية الموائمة للسياق"[١]، لتؤدي أصوات اللغة بتوقيعها، وظيفة دلالية، تعزى إلى غاية أساسية هي التواصل بين الباث والمتلقي، حيث المستوى الصوتي هو المستوى الذي يحمل شحنات قصد المرسل ويجسدها في صورة قوية، لأنه أول مستوى يصل إلى ذهن المرسل إليه، فيكون ناقلا للخطاب" [٢] .

وعلى ذلك فالإيقاع جزء من معنى الكلام الفني لا يتم بدونه، وشكل ذو معنى بل إنه قد يحمل من الشحن المعنوية باعتباره دالا ما لا يحمله المدلول نفسه ... فالإيقاع شكل له معناه وليس هو مساعدا فحسب على جعل الكلام ذا تأثير وإقناع "[٣] .

---

[١] الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم ، محمد فريد عبد الله : ٢٢ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط١ ،٢٠٠٨ م .

[٢] استراتيجيات الخطاب : ١٤٧ .

[٣] الحجاج في القرآن : ٥٠ .

نقوم بإجراء التحليل الصوتي لمادة (ذوق) عن طريق كم التواتر الصيغي الذي يفضي إلى حصر مقامات ورود الفعل، وتعرف أولاها بالأهمية والاختصاص في المدونة القرآنية .

حيث يتبين، وفق هذا الإجراء، أن مقام الفعل الأول هو : العذاب، ثم يليه مقام : بيان الطبائع البشرية، ومقام :الموت ومبارحة الروح الجسد، ومقام :الرحمة، ومقام: مخالفة آدم، عليه السلام، لأمر ربه .

أولا : مقام العذاب

يأتى الأمر " ذوقوا " في مقدمة الصيغ الملحقة بمقام العذاب، مقترنا – في أحيان كثيرة – بلفظة العذاب، حيث تعول موسيقى اللغة على الصيغة الطلبية (ذوقوا)، كونه أمرا منبورا نبرا دلاليا سياقيا [١]، وبالتالي على درجة التنغيم الصاعدة عند التلفظ به، كما تتكئ على المماثلة اللفظية أو محاكاة الأصوات، وما تنتجه من دلالات، ذلك " أن التأثير الذي تولده الكلمة فعلا عبارة عن توفيق بين أحد تأثيراتها الممكنة والظروف الخاصة التي توجد فيها "[٢] .

---

[١] النبر لغة معناه : البروز والظهور ، وهو في الدرس الصوتي " فاعلية فزيولوجية تتخذ شكل ضغط أو إثقال يوضع على عنصر صوتي معين في كلمات اللغة " في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، كمال أبو ديب : ٢٢٠ ، فينتج عن ذلك " نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد " الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٩ م. ما يؤدي الى وضوح نسبي على هذا العنصر الصوتي إذا قورن ببقية الأصوات . وأينما وقع النبر على كلمة كانت موضع الغرابة والتعجب .

[٢] مبادئ النقد الأدبي ، ريتشاردز.أ.أ ،ترجمة مصطفى بدوي : ١٩١ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ١٩٦٣ م.

الذال في " ذوقوا " صوت صامت لساني سني، احتكاكي، مجهور، " يتكون بأن يندفع معه الهواء مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت، وهو بين طرف اللسان والثنايا العليا، وهناك يضيق هذا المجرى فنسمع نوعا من الحفيف "[١]

ملمح الجهر يكسب الصوت وضوحا وقوة، يزيدان مع سمة الاحتكاك فيه، لأن الأصوات الاحتكاكية تلبث زمنا حين النطق بها [٢]، ليستند السياق الصوتي لـ "ذوقوا " في اقترانه بالعذاب، على ما في (الذال) من جهر واحتكاك في المخرج الصوتي، وما يحدثه ذلك من الوقع الحاد المؤلم على الأذن[٣]، على ما يمثله من زيادة في الحسية، يسخرها السياق في مواطن العذاب للإيحاء بالنار تلامس الأجساد، حيث ينفرد صوت الذال بأنه من حروف الطبقة اللمسية، المتميزة بإيحاء الخشونة والحرارة والفاعلية .

إضافة إلى ما يثيره هذا الفونيم من إيحاء بالحالات النفسية والذهنية التي تنطوي على الاهتزاز والاضطراب " بما يتوافق مع ظاهرة الاهتزاز في

---

(١) الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس : ٤٩، ٥٠ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .

(٢) يقدر المدى الزمني لحرف الذال بما متوسط طوله ١٣٠م/ن ، وطول الصوت اللغوي يقصد به " الزمن الذي يستغرقه النطق بهذا الصوت مقدرا عادة بجزء من الثانية " الأصوات اللغوية : ٢١٠ : ٢١٤ ، " فكلما زاد طول الصوت اللغوي ، زاد وضوحا في السمع "التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، سلمان حسن العاني : ٥٠ ، النادي الادبي الثقافي ، جدة ، السعودية ، ط١ ، ١٩٨٣م.

(٣) والذال ليس من الأصوات الجميلة التي تعذب في الفم وتلذ فى السمع .

حرف الذال الملثوغة "[١]، وفي الإيحاء بالاهتزاز والإيماء والتمثيل لبعثرة النفس ما يحكى حالة مباشر النار " ذائقها "، وقد تبددت سكينته، واضطربت نفسه، وطار عقله شعاعا، بمواقعة شدتها .

لتكتمل جملة إيحاءات هذا الصوت بالإبانة عما يعكسه من الفاعلية وشدة القطع، ركونا إلى مخرجه من اللسان وقد ضغطت عليه الأسنان ضغطا، ومدلوله نفاذ الشيء بعنف وشدة .

يتفاعل صوت الذال، بجملة خصائصه، مع الصائت المجهور " الواو"، ليثيرا دلالة الامتداد الزماني والمكاني للعذاب، وشدة آلامه .

وتمتاز الصوائت بالوضوح عند النطق بها، وبأنها تنقل إلى المسامع بكامل صفاتها، نظرا لما تتمتع به هذه الأصوات " من اتساع وخفة في النطق، وطول في النفس، ووضوح في الجهر، محدثة بذلك أكبر قدر من الصوتية "[٢]، مما أهلها لأن تكون عنصرا فاعلا في جماليات التشكيل الصوتي، وفي توضيح ما يسمى بالتآلف اللحني، وإدراك قيم النص الموسيقية ونشاطه.

والواو هى أثقل المطلقات نطقا، تستعمل للفاعلية، وفيها تمد الشفتان للأمام، فيحصل الصوت من تدافع الهواء فى الفم بما يوحى بالبعد إلى الأمام

ضيق الفم في نطق هذا الممدود، يحاكي ضيق موضع العذاب وضيق النفس به، والضم فيه يشيع جوا من التفخيم والتعظيم، يعكس في النفس رهبة لجلال الموقف وهوله، كما يحكي ثقل نطقه ثقل وطأة الموقف، وحركات

---

[١] خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس : ٦٠ : ٦٦ ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٨ م.

[٢] هكذا تكلم النص ، محمد عبد المطلب : ٢٤٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م.

العذاب . وكونه من زمرة حروف الطبقة البصرية، ينقل الدلالة في اللفظة إلى درجة من التمثيل البصري متزامنا مع إيحاء الذال اللمسي .

أما القاف فصوت مهموس، شديد، مقلقل، مستعل، بين التفخيم والترقيق، ومن ثم فهو إجمالا من أصوات القوة في اللغة . مخرجه من سقف الحلق مأخوذ من حكاية قطع الشيء ومدلوله القطع والفصل والإبانة، كما تدل على المفاجأة التي تحدث صوتا[١] .

صلابة صوت القاف تأتي من كونه صوتا انفجاريا، ينحبس الهواء حبسا تاما عند نطقه، ويتبعه انفجار وإطلاق للصوت، تستشعر الأذن قوته، ولذا يتصف بالقوة ويدل عليها، يقول إبراهيم أنيس : " أنسب الحروف للمعاني العنيفة هي (الخاء، القاف، الجيم) "[٢]، و يتمكن هذا الصوت المتسم بالصلابة، والشدة، والثقل من خلق دلالات مشحونة بالفزع والذعر، لاسيما وقد اكتسب الصوت أبعادا من الجهرية من خلال المماثلة التباعدية لصوت الذال، ومن الصائتين (الواو) وقد طوقاه، فإنه إذا " تألفت كلمة وقد تجاوز فيها صوتان، أحدهما مجهور، والآخر مهموس، ما يزال أحدهما يؤثر في الآخر حتى يصيرا مجهورين معا أو مهموسين "[٣]. وهو بانفجاره أقدر على تهيئة النفس للانفجار على الشرور، وعلى كل ما يؤذي، ويخلق بجرسه الشديد نوعا من الإيقاظ والتنبيه .

الانتقال من جهر الذال والواو إلى انفجار القاف يتناسب مع هدف الصورة الحسية، ومقاساة العذاب، ويعبر عن حركات الجذب والمعاناة .

---

[١] ويكاد صوت القاف أن يحتكر المعاني التي لا تميل إليها النفس ولا ترتاح .

[٢] موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس : ٤١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٢م .

[٣] في النحو العربي : قواعد وتطبيق ، مهدي المخزومي : ٨ ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٦ م.

يتوافق مع إيقاع الصورة أن القاف صوت مهموس، والأصوات المهموسة مجهدة للنفس، لأنها تحتاج في النطق بها إلى قدر من هواء الرئتين أكبر مما تتطلب المجهورة، حيث تنتج بجهد مضاعف، وهذا مناسب لحالة الوعيد وما تتضمنه من العذاب الذي يحتوي جهدا وعناء . كما يستثمر السياق صفة الهمس في الصوت" لإحياء القلوب، لتتفكر وتتدبر، حين يلمس بهمسه الوجدان، ويحادث النفوس، ويبعث على التأمل والتقصي العميق"[١].

يعقب فونيم القاف، مد آخر بالواو، يحدث مع المد المتقدم عليها إيقاع تفخيم، حيث " تتفاعل بنية المنطوق مع بنية المدلول فيتحول النسيج الصوتي إلى تنغيم إيقاعي على حد ما يتحول البناء إلى حركة "[٢] ، ليكرس هذا التفخيم لونا من الجذب للمخاطب يدفعه للعناية بالمقول، بينما يفتح المقطعين المتوسطين المفتوحين أمام المخيلة فرصة تأمل أهوال العذاب، وتمهلانها فسحة زمنية لتصور فداحته، وحيث يتوافقان بامتدادهما مع الآهات الحبيسة التي تخرج مع هواء الزفير الطويل فيعبران عن المشاعر المنطلقة الممتدة، إيحاء بنوح النادم الآسي، حيث الصوائت هي مجال الحزن الأوسع الذي يعكس دلالات الأسى والخوف والتحسر، لتمتعها بخاصية المد القادرة على منح المتلقي إدراكات أعمق وأكمل،" فيكتسب الفعل أهمية وجدانية وتأكيدا

---

[١] البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، مصطفى السعدني : ٣٣ ، د.ت.

[٢] قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، عبد السلام المسدي : ٢٤ ، دار سعاد الصباح ، ط٤ ، ١٩٩٣ م.

نفسيا عميقا "[١] ، يضاف إلى ذلك أن هذين المطلقين الجهريين يشبهان – في تكرارهما – منبها قويا يؤدي وظيفة القرع .

وبالجملة فالأمر " ذوقوا " أمر تهويل غايته الوعيد للانتهاء، ولذا فقد ارتكزت أصواته على مماثلة الحدث بجرسها الخشن الشديد، واحتوائها على ما يفجأ ويثير رهبة في النفس ، على أن في هذا الفعل – حين اقترانه بالعذاب – كل إيحاء مواقعته بأقصى المباشرة في التلقي، فالذال حرف يخرج من طرف اللسان، استعمل هنا لمناسبة مخرجه لمقدمة اللسان التي هي للذوق، ومع الذال تنعكس تلك الفاعلية وذلك التهيج والانفعال الشديد لحظة لقاء العذاب، والواو تكرس امتدادا زمانيا ومكانيا موافقا لامتداد زمن العذاب ومكانه وتحمل دلالة عمق الذوق وامتداده، وفي القاف يجتمع رد فعل مواقعة العذاب، وما توحي به من روع المفاجأة وهولها، وما تبرزه من عواقبها، فتلك هي الأجسام تشق وتقتلع دفعة واحدة، وتفصل ويكشف عنها، فتحقق العذاب وتكشف عن قوته . وفي استخدام القاف – ومخرجها من اللهاة قريبا من البلعوم – ما يوحي بأن المذاق قد تجاوز اللسان إلى البلعوم ليستقر بالجوف، تجاوزا يتزامن مع استعصائه على البلع، بما يثيره طول المد بالواو، ليبعث الأمر" (ذوقوا) في الذهن صورة النار تأكل الأحشاء بعد أن تصل إلى اللسان "[٢].

أما كلمة " عذاب " التي كثيرا ما تلحق بجملة الطلب " ذوقوا " فتتألف من العين، وهو صوت رخو مجهور، ذو جرس قوى يحاكي تعبير المعذب عن

---

[١] نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، تامر سلوم : ٤١ ، دار الحور ، اللاذقية ، سورية ، ط١ ، ١٩٨٣م.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف : ١٠٥ ، دار المكتبي ، سورية ، دمشق ، حلبوني ، جادة ابن سيناء ، ط٢ ، ١٩٩٩م .

ألمه ويماثل صراخه، فللعين " قيمة تعبيرية واضحة في تصوير الحركات والأصوات العنيفة "[١]، وهو حلقي[٢] يظهر تأثير كزازة العذاب في الحلق وضيق النفس به، وهو في صدارة الكلمة ناقل لإيحاء الشدة والفاعلية والظهور والعلانية في الحدث[٣]، كونه أطلق الأصوات، وأفخمها جرسا، وأنصعها سمعا، وفي اجتماعه مع " قاف " ذوقوا، وهما من أطلق الحروف وأوضحها جرسا، ما ينبه لعظم المذاق، حيث يشكلان معا قرعا يقصد إلى إيضاح مغبة سوء العمل .

وفي الذال الرخو المجهور – عقب العين – امتداد للتنبيه بالجهر، ووقوف على درجة العذاب وشدته بما ضمن من حسية حروف اللمس، حيث يشكل مع الصائت الألف بعده مزيد امتداد للألم، يعليه صوت القرع بعده (الباء) .

فصفات الأصوات الأربعة في كلمة "عذاب " لاسيما صفة الجهر التي تستدعي اهتزاز الوترين الصوتيين، وبذل مجهود أكبر حال التلفظ بها، من شأنها أن تجعل من معنى العذاب حارا، حتى وهو خارج السياق، فضلا عما مثلته هذه المسافة الزمنية بين الذال والباء في الكلمة، من أنات منقذفة

---

(١) من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم ، محمد السيد سليمان العبد : ٧٧، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، م٩ ، ع٣٦ ، ١٩٨٩م .

(٢) والحلق مساغ الطعام والشراب الى المرئ ، وهو مسار النفس ، وفي التحرير والتنوير : ٦٣/١٧ " واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى الباطن " .

(٣) ويعنينا هنا الإشارة إلى نمط حرف العين لفظا وخطا . حيث إن التلفظ به ، أو إدراكه بالبصر مكتوبا ، يقود الذهن مباشرة إلى العين التي هي حاسة النظر والرؤية البصرية – مما يصرف الدلالة الصوتية إلى الإبصار والمعاينة .

وزفرات متطاولة من نفوس معذبة ولهى، حيث توظف الباء في ختام الكلمة للدلالة على " الأنين المكتوم "[١] .

وحيث وظفت المدود في جملة الأمر (ذوقوا العذاب) وتعانقت متآزرة في تعطيل سرعة الإيقاع، وتعميق هوة التزمين، وحفر مسافة توتر"[٢]، ليساعد هذا المد المتوالي للألفاظ في تلوين الإيقاع عمقا وسعة وبروزا حتى يتسق مع المعنى والمشهد "[٣].

إضافة إلى ما سبق، فإن السياق الصوتي للأمر " ذوقوا " يتوسل لإحداث التأثير المنوط به الفعل بعدة مؤثرات صوتية أخرى من مثل :

(١)ترديد صوتي القاف أو الذال، وكثرة دورانهما

والترديد ظاهرة أسلوبية وتقنية تسهم في البناء الدلالي والايقاعي للنص، لتكرس بنية إيقاع داخلي، تؤدي دورا فاعلا في الإيحاء بمضمرات النفس، والإشارة إلى المعاني الغائبة أو الدلالات البعيدة .

هذا التكرار والتماثل يقرر قيمة تنغيمية جلية تزيد من ربط الأداء بالمضمون [٤]، ويؤدي إلى مزيد من التواصل الموسيقي بين أجزاء النص .

---

(١) الأسلوبية الصوتية ، محمد صالح الضالع : ٢٩ ، ط١ ، دارغريب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م.

(٢) التخريج الصوتي للبنية الإيقاعية : شعر أبي القاسم الشابي ، حقلا تطبيقيا ، أطروحة للماجستير ، عبد القادر رحماني : ٣٨ ، جامعة حسيبة بو علي بالشلف /الجزائر ، العام الجامعي ٢٠٠٧/٢٠٠٨ م.

(٣)قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن(مقال)، د.نعيم اليافى:١٣٦مجلة التراث العربى، اتحاد الكتاب العربى،دمشق،عددابريل ١٩٨٤م.

(٤)الأدب الجاهلي ، د. محمد النويهي : ٥٦/١ ، القاهرة ، (د.ت) .

ونستطيع حين نجلوه فى نص ما، أن نعده محاولة لفك الرموز فيه ووضع الإصبع على بؤره الحساسة .

وتتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه، وللإيحاء بما يدل عليه، معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد "[١]، وعلى ذلك فإن التكرار منبه أسلوبي قادر على " منح النص قابلية الإنتاج الايقاعي والجمالي وبالتالي جذب المتلقي لموسيقى النص "[٢].

ويكثر في سياقات فعل (الذوق) تكرار صوت القاف، كما يتكرر أحيانا صوت الذال، حيث تتواتر الفونيمات متماثلة تحكي المشهد بالتوقيع، وتستدعي دلالاته وتؤكدها .

في قوله تعالى " لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق " [آل عمران :١٨١]، يتكرر صوت القاف عشر مرات في عشر كلمات من جملة كلمات الآية الخمس والعشرين .

ومثل هذا الانتشار والتماثل الفونيمى الشاخص في صوت القاف هو لون من الإلحاح الصوتي الواضح في وحدات الآية، يثري إيقاعها الداخلي، ويجعل جرس الصوت فيها عالي النبر، حيث يغدو صوت القاف رمزا تتكثف حوله دلالات الآية، ويصبح محور القوة التعبيرية ومنبع التدفق بالسياق .

---

[١] الإشارة الصوتية في النص : مدخل إلى المفهوم والأدوات والقيمة ، د. منير تيسير شنطاوي : ٢٧٠ الجامعة الهاشمية ، الزرقا ، الأردن ، مجلة العلوم العربية ، عدد ٢٣ .

[٢] مستويات السرد الوصفى في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) طلال خليفة سلمان : ٩١-٩٢ كلية الآداب /جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ م.

والأمر يجاوز هذا الحد، حيث إن تكرار هذا الفونيم يأتي لمتابعة عظم المقول من بني يهود " إن الله فقير "، فلفظة (فقير) هي مستودع الإيقاع في الآية وبؤرته الصوتية، وعليها يحمل، فحيث ينون الحرف الأخير من الكلمة، فتلحق آخره نون زائدة، فإن " هذا العنصر الصوتي يمثل ثراء لغويا تبين اللغة من خلاله، فعلى مستوى الإيقاع لا شك أنه يمثل رنة، تحدث قوة إسماع حاملة ترددا زمنيا طويلا "[١]، وحيث يقع النبر الأولي فيها على صوت القاف بما يحمل من قيمة دلالية تخلق مستويات دلالية في الأداء، فتتداعى أصوات القاف تحاكي الدلالة، وهو صوت انفجاري يدل على المفاجأة والمقاومة وهذا يفضي إلى أحاسيس بصرية وسمعية من فقاعة تنفجر أو فخار تتكسر"[٢].

تستثمر الآية هذا التحريك لحواس اللمس والبصر والسمع، المصاحب لجرس هذا الصوت، في الكشف عن عظم المقول، وعظم الجزاء، وإبانة هذه الجزاء متحققا واقعا، مشاهدة عواقبه، مسموع صوت معاينيه، وقد باشروه، ومن ثم " فالقاف " مرددا يثير عظم المقول وخطورته، ويقدم لجزائه ويوطئ له من قبل ذكره (عذاب الحريق).

يدعم تلك الدلالة هذا التماثل الصوتي في الجناس القائم بين (فقير) و(حريق) وقد صارت قولتهم " فقير" حريقا يذوقونه، وما ينتجه ذلك بالقطع من دلالة مقابلة القول بالجزاء، والتجانس يأتي في مقدمة الخصائص الجمالية

---

[١] من وظائف الصوت اللغوي ، د. أحمد كشك : ١٧ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٦ م.

[٢] رسالة أسباب حدوث الحرف ، أبو على الحسين بن سينا : ٩٣ : ٩٧ ، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى منير علم ، دمشق ، مجمع اللغة العربية (د.ت) .

في الفضاء الصوتي للنص القرآني، وهو لون إلحاح نصي على إنتاج دلالة يعنى بها أكثر من عنايته بغيرها .

مثل ذلك ما ينتجه الجناس بين قول وقتل من دلالات، ترتكز على تقارب الدلالة في الآية بين القول والقتل، يقول البيضاوي في تفسير قوله تعالى :" سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق "، أي سنكتبه في صحائف الكتبة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها أن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول "[1].

- وإلى شيء من ذلك يومئ التقابل بين قالوا/نقول، حيث يستثمر السياق الصوتي، نون الجمع الدالة على الفوقية والاستعلائية بجهريتها في إظهار المقابلة بين قول وقول أعلى، و" التقابل طريقة من طرق الأداء في الموسيقى وفي الرسم وفى الأدب أيضا، والقرآن يكثر من استعمالها في تنسيق إيقاعاته التي ينقلها بالألفاظ على نحو دقيق "[2] .

سياق الآية يعتمد نوعا من المماثلة الصوتية داخل الآية ترتكز على النظام المتوازن للوحدات اللسانية : قول/قالوا، قالوا/نقول، فقير/حريق، قول/قتل، يؤسس به السياق لنوع من العلاقات الدلالية داخل الآية، خلقها النص وكرسها عن طريق المشابهة الفونامية داخل الوحدة الألسنية .

كما يرتكز التكرار لعنصر القول على فونيمي القاف واللام في : قول، قالوا، قالوا، نقول، حيث أحدث التكرار انسجاما صوتيا، اقتصد به الجهد اللفظي، فضلا عن موحيات الأصوات التي يتجه إليها النص محاولا الربط

---

[1] تفسير البيضاوى : ٥٢/٢ .

[2] قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن ، نعيم اليافي : ١٣٦.١٣٧ .

بين حركة الصوت وحركة النفس، باحثا عن التقاء القيم التعبيرية الصوتية، وقيم التأثير النفسي الذي تضيفه الإيحاءات الداخلية على دلالة النص " [١]، حيث يحكي الصوتان (القاف واللام) هول ما قالوا وافتأتوا به على الله، وهول عقابه .

ومثل ذلك الترديد الصوتي ودلالته ما يعتمد عليه النص في تكرار فونيم الذال في قوله تعالى : " ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر، فذوقوا عذابى ونذر " [القمر: ٣٦ :٣٩] .

وفي هذه الآيات يتجاوز الأمر التكرار الصوتي المفرد لفونيم (الذال) إلى التكرار اللفظي والتكرار الكلي الجملي، إذ لا تقتصر البلاغة القرآنية على تكرار الصوت المفرد للاستعانة بجرسه في تصوير موقف ما تصويرا فنيا ولكنها تتعدى ذلك إلى تكرار أصوات متتابعة قد ينتظم تتابعها وقد يختلف اختلافا يسيرا . وهي في النهاية تأتي بما لها من صفات صوتية خاصة للتعبير عن معنى معين، وإبراز جوانبه المختلفة وتصويره بجرس ألفاظه تصويرا موحيا مؤثرا [٢].

---

[١] ينظر : ثلاث قضايا في إعجاز القرآن الكريم ، نعيم اليافي : ١٠ ، مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، عدد ١٥، ١٩٨٤ م.

وفي استعانة السياق بفعل القول اعتماد عنصر سردي ، وصيغة سردية هي " المنقول المباشر " التي توحي بأهمية الحدث وخطورته، حيث يمثل تكرار فعل القول وتوليد الألفاظ من جذره التأكيد على هول ما قيل .

[٢] دراسات قرآنية في جزء عم ، محمود أحمد نحلة : ٦٤ ، دار العلوم للطباعة و النشر ، ١٩٨٩ م .

قراءة الآيات تسفر عن كون منطلقها ومحورها الصوتي هو كلمة " نذر"، والنذر جمع نذير، والضمة فيها ثقيلة لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن جساة صوت الراء . فنذر [١]هي الكلمة المولدة للإيقاع في الآيات، وهي محور العنصر اللساني، والنواة الدلالية للآيات، ونقطة الارتكاز الباعثة والرابطة في الآن، حيث يضغط بها الإيقاع بالتكرار لإحداث التأثير المرجو في باب الوعيد، مبررا استحقاق المعرضين لسوء المنقلب والعذاب وقد تكرر الإنذار به .

وفي هذه الآيات تتعاضد ذال (ذوقوا) مع ذال (عذابى) وذال (نذر) لتوحي جميعا بثقل المذاق وشدة وطأته، لاسيما مع ما يعقبها من جهر حروف اللين وامتدادها الصوتي في (ذوقوا) و(عذابي) .

واللفظ المكرر من هذا النوع يصبح مصدر الإثارة في النص وقانون رئيس من قوانين تداعى المعاني" [٢]، فمثل هذا الترجيح الصوتي في " نذر" يؤدي غرضه في باب التنبيه والوعيد عبر قيم صوتية كرستها جملة صفات أصواته، لا سيما في وقوعه فاصلة للآيات، التي تنتهي كلها بصوت الراء، وهو صوت مجهور يقرع الأذن ويوقظ الأعصاب، فهو مثير جهوري، تكراري جيء به بعد الذال والنون المجهورتين والمضمومتين .

يضاف إلى ذلك اشتراك النون والراء في بعض الصفات، إلى جانب اشتراكهما في المخرج حيث أنهما ذلقيتان، إلا أن النون تخرج من طرف اللسان والراء من رأسه وكلاهما يوحي بالصخب والحركة، وهما أكثر

---

[١] وذوق النذر أي مجازاة فعلك وموجبه ، وعبر بلفظه هنا عن آيات العذاب التي يخوف بها المشركين .

[٢] التكرير بين المثير والتأثير ، عز الدين السيد علي : ١٣٧ ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة / ط٢ ، ١٩٧٨م .

الأصوات وضوحا وأقربها إلى طبيعة الحركات . وهذه الجملة من الصخب المصحوب بالتكرار تخلق دلالة استحقاق العذاب، وقد تكرر التبليغ والإنذار به، فتنتج دلالة معاقبة العمل بالجزاء .

وعلى هذا النحو فمع ترديد لفظة " نذر" يكتسب النص نغمة خاصة، وعمقا بحيث إذا ما انتهى السياق تكون اللازمة قد أدت دورها كاملا، ووقعت على النفس توقيعات شتى، عمقت بها لدى المتلقي الإحساس النهائي .

(٢)التنغيم

أكثر التلوينات الصوتية حضورا في بنية الخطاب القرآني، ولعلها أكثرها إثباتا للمقامات التعجيزية والحجاجية، هي التبدلات التي يحدثها التنغيم بمفهومه اللساني، والذي يجليه تنغيم الكلمة، وتنغيم الجملة، ومواطنه ثلاثة هي : النغمة الصاعدة، والهابطة، والمسطحة .

ولا يخلو الخطاب القرآني من هاته التوظيفات غايته فيها الحجة والإقناع والبرهان، وإثارة دلالات من مثل التعجب أو التهكم أو السخرية ..."فإذا كان شكل الخطاب يقتضي دلالة معينة، فإن التنغيم عند التلفظ يفصح عن قصد المرسل، مما يمنح الأولوية للدلالة على قصد المرسل "[1] .

ويشير مصطلح التنغيم إلى التغيرات في الدرجة الصوتية التي تحدث في صوت المتكلم أثناء الحديث المتواصل، وهو ناتج طبيعي عن تذبذب الأوتار الصوتية، وتختص به اللغة المنطوقة، إذ يقتصر على التراكيب المسموعة دون المقروءة .

---

[1] استراتيجيات الخطاب : ١٤٨ .

عبر التنغيم تتم قراءة لطائف وأسرار من بلاغة الخطاب القرآني، حيث إنفرد هذا الخطاب بروعة الاستثمار لقيم التنغيم في استكناه دفائنه واحتواء دلالاته[١].

في موضع فريد ورد فيه الأمر " ذوقوا" مفردا، في قوله تعالى : " ذق إنك أنت العزيز الكريم "، يعتمد حجاج فعل الأمر – في وجه من الوجوه – على مباينة النغمة أو مفارقتها .

ومفارقة النغمة " تعني أداء المنطوق – على الكلية – بنغمة تهكمية ؟ يعول عليها فى إظهار التعارض أو التضاد بين ظاهر المنطوق وباطنه، بين سطحه وعمقه، بحيث تقتلع هذه النغمة التهكمية، محتوى ذلك الظاهر لمصلحة الباطن المضاد " [٢] .

يقول تعالى في سورة الدخان " إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلى فى البطون، كغلي الحميم، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق انك أنت العزيز الكريم " [الايات٤٩:٤٣] .

المجموعة النغمية لجمل الطلب : خذوه، فاعتلوه، صبوا . قائمة على نغمة موحدة حيث لا تخلو أفعالها الثلاثة من المد بالواو، ما جعلها سلسلة

---

[١] يقول ديفيد كريستال : " ليس التنغيم نظاما متفردا من المناسيب يأتي في نهاية الجملة ، ولكنه خصائص معقدة من مختلف الأنظمة البروسودية تشمل : النغمة ، دلالة الصوت ، المدى ، علو الصوت ، التزمين ، هذه كلها مجتمعة تأتي متناغمة ذات إيقاع " اللغة العربية ، معناها ومبناها ، تمام حسان : ٦ ،القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م.

[٢] المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)،محمد العبد : ٤٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط٢ ،٢٠٠٦م .

إيقاعية منتظمة تشكل " مجموعة نغمية واحدة " تنتهي بالجملة النحوية (ذق) التي باينت نغمتها جمل الأمر الثلاث المتقدمة عليها، فقد خلا فعلها من المد بالواو، وأنشأ بذاته بنية صغرى تختلف عن بنى سائر الأوامر .

ومع تلك المفارقة التنغيمية كشف السياق عن جانب خروج الأمر عن دلالته الطبيعية إلى دلالة مستلزمة تداولية، وانتقاله من باب الحقيقة إلى المجاز، ذلك أن " النغمة في الأفعال الثلاثة الأولى نغمة أمر بإنزال عقاب، بينما هي نغمة أمر في تأنيب وتهكم في الفعل " ذق " أو لنقل – بعبارة سيد قطب– إنها نغمة تهكمية ساخطة مزدرية، فيها التأنيب الذي يصاحب التعذيب " [١] .

فـ " ذق" أمر غايته " الهزء والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه "[٢] ، والمراد " أنت بالضد منه" [٣].

وهكذا عن طريق النغمة المفاجئة يكشف السياق عن لون من الكسر للتوقعات، يتم من خلاله قراءة الدلالة المستلزمة، حيث يتداخل سياق اللغة مع سياق التاريخ .

ومن جانب آخر فالوحدة الصرفية " ذقْ" في ضوء المستويات الأربعة لدرجة الصوت في النظام التنغيمي يناسبها المستوى الثالث منها، الذي تكون فيه درجة الصوت عالية، وذلك لإظهار نغمة التهكم العالية التي انبنى عليها السياق [٤]، فبسبب النغمة التي جاء عليها الفعل من المرسل والتي أسهمت في تحديد دلالة الخطاب ومنحته قوة إنجازية . نقلت دلالته من فعل لغوي إلى فعل لغوي آخر، من الأمر المباشر إلى السخرية . فالأمر "ذق" وإن وافق في

---

[١] المفارقة القرآنية :٤٧ .

[٢] الكشاف : ١٠٠٣/٢٥ .

[٣] التفسير الكبير : ٢٥٣/٢٧ .

[٤] التشكيل الصوتي ، سلمان العاني : ١٣٤.

جملته، جملة الأوامر الثلاثة المتقدمة عليه من حيث إنها جميعا منبورة نبرا سياقيا، إلا أنه أختص بوقوع النبر الأولي عليه كاملا، لأنه يتألف من مقطع واحد، أحال بفعله السياق من عقاب جسدي (حملته الأفعال الثلاثة) إلى عقاب نفسي وجسدي كفله الفعل (ذق)، " فالقرآن حين يعرض مشاهد العقاب الذي يصطليه أعداء الله لا يكتفي بعرض العقاب الحسي، وإنما يبرز أيضا جانب العقاب النفسي، ليكون العقاب كاملا، جسديا ونفسيا، وليكون الزجر به والتخويف منه أبلغ فى النفوس "[١].

عبر " ذق " ذات المقطع الواحد (الطويل المغلق) وما يعقبها من سكتة قصيرة، قرئت دلالة السياق . بما يدل عليه المقطع المغلق من الشدة والحسم الموقع مع السخرية شعورا بالرهبة عزز به السياق دلالة الوعيد، عقب سلسلة أفعال اعتمدت المقطع المفتوح .

وفي مواقع أخرى يعتمد سياق الأمر " ذوقوا " على ما تقدمه من ألوان التنغيم التي تحدثها صيغ مثل الاستفهام .

فحسبك من هذا الاستفهام وما يثيره من تنغيم، يقع قبل الأمر " ذوقوا "، وما يؤثر به في الدلالة الذهنية، ليشعر المتلقي بخطورة ما تحمله الآية من معان عن طريق هذا الفونيم غير التركيبي، في هذا الجزء من الكلام، مما يدل على أهمية المقال وعناية القائل به "[٢].

ومن شأن هذا التنغيم كذلك أن يعمق المعنى في الآية ويزيد من قدر تأثيرها في النفس، وأن يزيد على تأكيد المعنى المثار فيها بما يحققه من وقع

---

[١] التصوير الساخر في القرآن الكريم ،عبد الحليم حفني : ٢١٣ ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٣م.

[٢] التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر : ٧١ ، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب ، القاهرة مكتبة الخانجي ، ط٢ ، ١٩٩٤م .

موسيقي متميز، إذ هو اهتزاز متغير للوترين الصوتيين في الحنجرة يرتفع به الصوت وينخفض أثناء الكلام " [١] .

ومع تكرار أسلوب الاستفهام في مواضع العذاب، بنغمته الخاصة التي تثير النفس وتحرك الخيال، ترسم صور متنوعة كلها تدعو إلى كشف الغشاوة عن العيون .

٣) جرس الألفاظ سابقا أو لاحقا لفعل (الذوق)

يعتمد سياق الأمر ذوقوا الذي لم يرد إلا في مواقع العذاب، على الألفاظ ذات الجرس المرتفع، التي تحاكي فعلها، وذلك مثل لفظة " يصطرخون " وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل " [فاطر:٣٦] .

ففي هذه اللفظة استخدمت صيغة الافتعال، لتدل على شدة الصراخ والصياح حيث يعتمد السياق على نقل الحدث عبر الأصوات .

ففي " يصطرخون " تشيع حروف التفخيم : الصاد والطاء والخاء، وينسجم التوازن بين الحركة والسكون في أصواتها، ويؤدي المد فيها وظيفة إظهار الصراخ الدائب، إضافة إلى ما في صوت الراء من تكرار وارتجاج وتذبذب في الحركة، بما يماثل الحدث وما في صوت الطاء من تصوير لارتطام المعذبين واصطدامهم وسط الزحام .

فعبر الصوت اللغوي ودلالة المطلقات تم الكشف عن الحدث وإظهاره بإيحاء صفات الأصوات، وما فيها من جهر وشدة واستعلاء، فرسمت حالة الفزع والازدحام التى يعانيها المعذبون، كما رسمت صورة ارتطامهم وسط الزحام .

ومن خلال الإيحاء الصوتي وقراءة الترديد في كلمة (زحزح) في قوله تعالى : " كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح

---

[١] **مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان :١٦٤ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٩٠ م.**

عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " [آل عمران : ١٨٥] يمكن تلمس إيحاء الكلمة .

وليس أوقع من لفظة " زحزح " في هذا الموضع لتعبر عن الحدث وتنقل المشهد، إذ تصور بجرسها حالة الإبعاد والتنحية، وذلك عبر حالة التكرار الصوتي للحاء والزاي، الذي يوافق تكرر الحدث، و لفظة زحزح تستعمل للشيء الثقيل حتى تحركه قليلا قليلا، فكأن حجم الذنب يجعله ثقيلا في ميزان الله تعالى ويقرب المذنب من النار قربا يكاد يشك معه أنه قادر على الإفلات منها، وإذا برحمة الله (تزحزحه) عنها وتدخله الجنة "[١] .

مثل هذا التكرار يقابلنا مع لفظة (صرصر) في قوله تعالى " فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون " [فصلت:١٦] .

والصر بمعنى البرد، وإذا قيل الصرصر نعت للريح من البرد، ويقال ذات صوت، والصر (البرد وريح صرصر: شديدة البرد قيل وشديدة الصوت)، " الصرصر : الريح الشديدة، يكون لها صوت كالصرير "[٢] .

---

[١] التنغيم في القرآن الكريم (دراسة صوتية) ، سناء حميد البياتي : ١٣ جامعة بغداد ، مركز إحياء التراث العلمي العربي /العراق .

" وإيحاءات جرس الزاي وأزيزه وتكراره توحي بصورة الزحزحة " العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي " (دراسة أسلوبية): ٤٧، بثينة ممد سيد أحمد ، (أطروحة للدكتوراه) ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٥ م.

[٢] التحرير والتنوير : ١٥/ ٧٠ وفي البحر المحيط : ٧/ ٤٧٠ " عاتية على خزانها فخرجت بغير مقدار " .

وفي هذه اللفظة نستقرئ بالحس الصوتي للغة دلالة خاصة، فيما توحي به من اصطكاك الأسنان عند نطقها، وتردد اللسان فيها فالصاد صوت له وقع صارخ لما فيه من صفير، والراء صوت الحركة والتكرار، وهو انفجاري يوحي بقوة الريح وضراوتها (وقد ورد فى الكلمة مضعفا مع صوت الصاد) مما أضفى صيغة الشدة، وجسد حالة الرهبة .

وتقدم لفظة (غساق) في قوله تعالى :" لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا، إلا حميما وغساقا " [النبأ٢٤.٢٥]، بنية صوتية خاصة، تشد السمع وتثير الانتباه، وفي وعورتها تتبدى حالة الهول، وفي جرسها الخشن ما يرهب بما احتوى من أصوات المفاجأة والصدمة والإثارة .

ثانيا : مقام بيان الطبائع البشرية

يرد فعل الذوق في هذا المقام ضمن صيغة شرطية، تعتمد إيقاعها المميز واحدا من طرق الأداء التأثيري فيها، فلصيغة التعبير من حيث الدقة، وحسن الاختيار، والإحكام وقوة السبك، وجمال التناسق الأثر في إحداث الإيقاع داخل العبارة .

وفي أسلوب الشرط نكاد نحس أن أداة الشرط موصولة بجملة الشرط دون سكتة بينهما، وكأن الأسلوب في تنغيمه قسمان : الأداة والشرط معا، ثم الجواب ... فالركن الأول الأداة وجملة الشرط يتلوه سكته واضحة ليبدأ الجواب بعدها ذا وضوح نغمي يحدد المراد من الكلام، لأنه تمام الفائدة في أسلوب الشرط "[1].

---

[1] من وظائف الصوت اللغوي ، أحمد كشك : ٦٦ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، ٢٠٠٦م .

فالشرط إذن مجموعات معنوية، وكل جملة على هذا النمط يعتبر كل جزء منها مجموعة كلامية مستقلة لأنه يقع بين سكتتين ولكن هذه المجموعات الكلامية مترابطة من جهة المعنى "[١].

ومن شأن هذه السكتة أو الوقفة بين جملتي الشرط والجواب أن تحدث لونا من التردد والاستثارة والترقب " ومن أجل ذلك فإن تأكيدا أو قل ضغطا حاصلا على الجواب حين يأتي كفيل بأن يريح بال المستمع تماما " [٢]، ولذا فإنه بينما تنتهي المجموعة الكلامية المؤلفة من الأداة وجملة الشرط بنغمة صاعدة حيث لم يتم المعنى، تنتهي المجموعة الكلامية المشكلة لجملة الجواب بنغمة هابطة .

مثل هذا الترتيب النغمي في صيغة الشرط القائم على حسن التقسيم، والتقابل، من شأنه أن يزيد في إبراز المعاني، ويحقق الغرض منها .

يقول تعالى في سورة الشورى : " وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الإنسان كفور " [آية:٤٨] .

ونحن في هذه الآية حيال جملتي شرط، تقابلت فيهما المعانى عبر وحدات اللغة : إذا/إن، أذقنا/تصبهم، رحمة/سيئة، فرح/كفور، ومع جملة المتقابلات يتلون الإيقاع، فالموسيقى " ليست مقاما للصوت وحسب، وإنما هي حالة أو كيفية تتبدى بالحركة والتوقف، بالجيئة والذهاب، بالتوافق والتناحر، بالقوة والضعف ... وهذه الصفات تضمها كلمة التقابل "[٣].

وهذا التقابل مقصود إليه قصدا لأنه يظهر حقائق الكون والحياة والإنسان، حقائق الإيمان والكفر، حقائق الجزاء والعمل، وليس أبلغ من عرض الحالات

---

[١] مناهج البحث اللغوي ، تمام حسان : ١٦٨، مكتب النسر للطبعة ، القاهرة ، ١٩٨٩ م.

[٢] من وظائف الصوت اللغوي : ٦٧ .

[٣] قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن ، نعيم اليافي : ٣٦ .

المتقابلة التى تفعل فعلها، وتخلف تأثيرها الكبير في النفس، والتأثير هو الوجه الآخر للتعبير وكلاهما يسعى إليه القرآن "[١].

هذا التقابل المشهدي بين حالتي العطاء والأخذ في الآية، يعكسه إيقاع بالغ الدقة . تلونه أصوات اللغة وحركاتها، فجملة الشرط الأولى تتزاحم فيها أصوات الجهر والانفجار والتكرار تعكس حالة عطاء تجاوز القلة إلى الكثرة، والباطن إلى الظاهر، يعانقها صوت المد بالألف – وقد اقتصرت الآية على حركته دون حركتي الواو والياء لتوحي بهذا الصائت في باب العطاء باستطالته وسعته وامتداده، تكتنفه أنصاف الحركة " الفتحات " لترسم حالة الإغداق والانفتاح بالعطاء والتمكين له .

كما يؤدي هذا المطلق " الألف " غرض المبالغة والتعظيم، الذي يبرز بقوة فى وحدات اللغة في الآية : إنا / أذقنا / منا، وجميعها ضمائر متكلم عائدة على الله سبحانه . حيث يكون دور أصوات الحركات هو الإسهام في تجسيد عظمة الخالق، وإظهار قدرته التى لا تحد، وقد اقترنت فيها جميعا بصوت الغنة " النون "، وهو من أصوات الذلق ذات الوضوح السمعي المميز، ما يزيد الكلمة وضوحا ورنينا ينسحب على السياق، لا سيما وقد حملت ترددا زمنيا طويلا بفعل حركة المد [٢] ، تخالط هذه النغمة، نغمة أخرى رخية هادئة حانية توافق لطف هذا العطاء، يعكسها صوتا الحاء فى رحمة وفرح، وهذا الصوت كثيرا ما يدل على السعة ... وذلك بفضل الراحة في نطقه وسهولة مخرجه .

---

[١] المقال السابق : ٣٧ .

[٢] وحرفا الغنة النون والميم حرفان ألفتهما الأذن لكثرة دورانهما في فواصل القرآن ، حيث يعكسان صفة البروز والانكشاف والتألق ، حيث تتميز النون بأنها صوت جهور ذلقي ذو غنة جميلة تمنحه عذوبة في النطق وسحرا ما يجعل الصوت أقرب إلى التغني .

وفي الجملة الشرطية الثانية التي تمثل حالة السلب، تسيطر حروف الصفير[١] والجهر والانفجار تعلن عن سوء استقبال الإنسان للابتلاء، حيث تؤدي هذه الأصوات غرض التنبيه متزامنا مع إيضاح خطأ المسلك عبر أصوات اللغة، وأصوات الحركات التي تتنوع ما بين الألف التي تعظم سوء المسلك البشري، والياء التي تماثل حركة انكسار الإنسان وذلته، والواو التي توحي بتماديه في الضلال .

وقد ارتكزت جملتا الشرط على المقاطع الطويلة المفتوحة في أكثر المواضع، لتفتح أبواب الخيال والتأمل، وتمنح المتأمل فسحة زمنية كافية لتدبر النتائج التي تخالف المقدمات، إضافة إلى ما تعكسه هذه المقاطع بمدودها من الإنكار والتعجب من حال الإنسان .

ثالثا : مقام الموت ومبارحة الروح للجسد

هذا المقام عكسته الآية " كل نفس ذائقة الموت " والتي وردت في مواضع ثلاثة من الخطاب القرآني . و تستهل الآية بلفظة " كل " التي لا يخفى ما لها من قوة تعبيرية منشؤها صوت الكاف [٢] واللام، اللذان اختلفا مخرجا، وتقابلا في صفتي الانفجار والجهر، فالكاف مهموس، واللام مجهور، مما أدى إلى محاكاة التقابل الصوتي لدلالة اللفظة، واللفظة ذات قوة تعبيرية تلقي بظلالها القوية على مجمل الكلمات لما تحوي من تأكيد على وقوع الأمر لا محالة من دون استثناء . وقد استعملت في كل القرآن لما فيه شدة .

---

[١] وقد اتخذ الناس من حروف الصفير (السين والصاد) نذيرا ينبههم عند الخطر .

[٢] **الكاف ، انفجاري شديد ، ينتج عن انحباس النفس لحظة النطق به ، ثم اندفاعه دفعة واحدة ، ما يلائم حالة المكبوت المقهور ، الذي ينفجر فجأة كالبركان . فما تعبر عنه الكاف الثورة العارمة والانفجار الوشيك .**

الذال في ذائقة تؤدي دورها في إظهار حسية المذاق، وتعمل حركة المد فيها على الامتداد الحسي للألم، وإظهار صعوبته ومعاناته الشديدة التي يطول مداها على معاين الموت، وتكشف من الأحاسيس والمشاعر التي تكتنف المشرف على الموت وما يقاسيه من السكرات وما ينطوي عليه ذلك من الذهول والخوف والترقب والاضطراب، وما يعانيه من غصة ممتدة، هذا المد الذي يحتوي لحظات انسلاخ الروح يحرك المشهد وينطق بأبعاده، من حركة تصاعدية للروح في رقيها من الأرض إلى السماء، إلى جلال لحظة خروج الروح ورهبتها، وهيبة الإقدام على حياة الحساب . فالآية تصوير لحالة الاحتضار تجعلها حاضرة، تخرجها من ثنايا الألفاظ، وتجعلها ماثلة من خلال الصورة .

وإذا كانت الفتحة، كما أكد العالم (فوناجى Fonagy) بقوائمه الإحصائية، تدل على الكبر والضخامة [1] ، فإن الفتحة في ذائقة تحكي أمرا خطيرا عظيما .

يضاف إلى ما سبق، الإيقاع الهادئ البطئ الذي ينظم الكلمات ويضبطها ويمنحها القدرة على تصوير الحالة النفسية، والذي يكتسب خصوصية نغمية مع المد في ذائقة وما يعتري المد من شبه وقف يتواصل معه النفس دون انقطاع، لا يلبث أن يعترضه حرف حلقي يخرج من أقصى الحلق وهو الهمزة، فيمنح امتدادا نغميا حادا يوحي بالانفعال والبكاء، بل نكاد من خلاله أن نسمع حشرجة الصوت .

أما حرف القاف هنا وهو يصدر من أعماق الحلق، فيوحي بالضيق والاختناق مما يوافق حال المحتضر الذي تخرج روحه من جسده وتنتزع منه انتزاعا .

---

[1] في سيمياء الشعر القديم ، محمد مفتاح : ٧٤ ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٩ م.

أما (الموت) فلفظة تضم أصواتا ضخاما تثير الرهبة، تختم بصوت التاء الذي يقرع قرعا مجلجلا مدويا، وقد سبق بمثله حين اتصال ذائقة بالموت والتاء حرف مهموس، إلا أنه شديد انفجاري، يحقق الهمس فيه أزيزا فيه شدة، وهو كما ينص الشيخ العلايلي يدل على الاضطراب في الطبيعة، ولذا فوروده في تلك الحالة يمثل ما يكون عليه المحتضر من التوتر والاضطراب كما ينقل هذا الصوت اللغوي حالة المحتضر الظاهرة وقد تلعثم في كلامه وذهل عن حالة، إبان استقبال الخطب الجليل، الذي يعقد الألسنة، ويذهب العقول [1].

وفي جملة (كل نفس ذائقة الموت) تسيطر المقاطع المتوسطة بنوعيها، حيث توفر المفتوحة منها جو التأمل واستبطان الحدث الذي تقصد إليه الآية، بينما توافق المقاطع المغلقة حالة التقرير الحاسم القاطع بالجملة الخبرية، المبدوءة بكلمة الشمول والكلية، لحقيقة بادية خافية، ظاهرة متوارية، مقررة منكرة .

رابعا : مقام الرحمة

وفيه وردت الآية " ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " [الروم:٤٦]

يصور مد الياء في (يذيق) المقترن بانفتاح الفم مع حركة الكسرة، انعطافا وحنوا ربانيا فى العطاء، وكأنما يد تمتد من السماء إلى الأرض تطعم وتشمل بالرعاية .

---

[1] صوت التاء من الأصوات التي ترتبط بعيوب النطق الاضطرابية ، فهو يرتبط بالتأتأة ، والتمتمة .

وقد سبق الكلمة صوت الخاء في "رياح" بماثله آخر يعقبها في "رحمته"، وهو من الأصوات الرخوة المهموسة، عند النطق بها تنقبض فتحه لسان المزمار من دون أن تحدث اهتزازا في الوترين الصوتيين" [١] .

ومادة رحم التي اقترنت في الآية بفعل الذوق، هي مادة العطاء الرباني، وتتألف من أصوات أبرزها الحاء المنطلقة من الصدر فهي صوتيا مثلها دلاليا من القلب وإلى القلب، ومن الشغاف إلى الشغاف " [٢] ، حيث يتحول صوت الحاء من البحة الحانية في طبقاته العليا إلى ذوب من الأحاسيس، وعصارة من عواطف الحب"[٣] .

فأنت تنادى من صدى " الرحمة " بأزيز حالم، وتحتفل من صوتها بنداء يأخذ طريقه إلى العمق النفسي، يهز المشاعر ويستدعي العواطف، ناضحا بالرضا والغبطة والبهجة، رافلا بالخير والإحسان والحنان" [٤].

كما سبق فعل الذوق صوت الشين في" مبشرات"، وتأخر بعدها ليأتي في كلمة الفاصلة "تشكرون"، وحرف الشين بما يدل عليه من التفشي والانتشار

---

[١] علم الأصوات وأصوات اللغة العربية ، روعة محمد ناجي :٦٢-٦٣ ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، لبنان ، ٢٠١٢ م.

[٢] الصوت اللغوي في القرآن ، محمد حسين الصغير : ١٧٨ ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م.

[٣] خصائص الحروف العربية : ١٨٣ .

[٤] الصوت اللغوي في القرآن ، محمد حسين الصغير : ١٧٧ ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م.

يعقد علاقة ملازمة تلقائية بين (مبشرات) و(تشكرون)، فكما نشر بينكم الخير عليكم أن تنشروا الشكر له ظاهراً [١].

خامسا : مقام مخالفة آدم عليه السلام لأمر ربه .

تعكس دراسة الإيقاع الصوتى للماضي "ذاقا" الذي ورد في قصة آدم، عليه السلام، في خطاب سورة (الأعراف)، حالة التوافق الدلالي مع قوله تعالى " فأكلا " الذي ورد في القصة ذاتها في موقع (طه)، وذلك بالاعتماد على إيقاع الحركات وتشكيل المقاطع .

ولاستخدام المقاطع الصوتية دور في " تلوين الخطاب بألوان مختلفة باختلاف أنظمتها من حيث التكرار والتجانس والإيقاع " [٢].

فالمقطع المتوسط المفتوح (ذا) في ذاقا، والذي ينتهي بالمطلق الأليف، ينقل مرحلة امتداد زماني للتطعم من الشجرة، تبعا لامتداد الألف وانتشارها وإنبساطها وانفتاح فكي الفم عند نطقها، وما يدل عليه ذلك من الاستطالة في الحدث والامتداد به لبلوغ الغاية، وفي التحرير والتنوير " الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى الباطن" [٣] .

بينما تقطع غلبة المقاطع القصيرة في قوله تعالى : (فأكلا) " فَ ، أ، كَ " بالسرعة في حدث الأكل بما يحقق (ذاقا)، حيث يقتصر دور المقطع

---

[١] وفي مفردات الراغب : ٢٦٥ " الشكر هو تصور النعمة وإظهارها ، قيل : وهو مقلوب عن الكشر أي الكشف "

[٢] التحليل الألسني للأدب ، محمد عزام :١٣٢ ، دراسات نقدية وعربية١٠ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، سورية ،١٩٩٤ م.

[٣] التحرير والتنوير : ٦٣/١٧.

المفتوح (لا) على فتح مجال التأمل والنظر في فعلة آدم وزوجه، وترقبا لعواقبها .

أما الفواصل فقد أدت دورها في الموقعين تزامنا مع خصوصية كل سياق، لترصد تباينا في المقاصد، فبينما تنطلق الفاصلة في سورة " طه " من " عهدنا... فنسي " في مقام العناية الإلهية، تنطلق في الأعراف من " قليلا ما تشكرون " في مقام العتاب الرباني والمؤاخذة [١] .

لتؤدي الفواصل المتماثلة دورها في التنبيه والتحذير في (طه)، حيث تنصب التشكيلات ذات الفواصل المتحدة في وحدة موضوعية واحدة، مما يحقق علاقة مترابطة داخل البنية الكلية، فالفواصل كلها تختم بصوت الألف، ومن المعروف أن أصوات اللين عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه، وهو ما يتناسب مع وظيفة التنبيه وما تستدعيه من دفع الصوت واستمراره، اعتمادا على ما يحدثه صوت الألف خاصة من إيقاع صاعد ذاهب إلى بعيد، تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة في أرجاء الكون، تطرق الأسماع، وتوقظ النفوس، وتنبه العقول، وتفتح مجالا للإقناع .

يضاف إلى ذلك أن حروف المد واللين فيها غنة وتجاريب، والألف خاصة هي أوسع الصوائت مخرجا وأخفها وأعذبها جرسا وأمدها نفسا مما يوافق مقام الرعاية، فهذه هي رعاية الله وعنايته إذ " ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره، عقب نشوزه وعصيانه "[٢].

---

[١] البحر المحيط : ٤/٢٨٠ .

[٢] التعبير القرآني : ٢٨٨ .

إن المدود في فواصل (طه) تؤدي دورها في معرض التحذير، انطلاقا من إحاطة ورعاية ربانية لآدم الذي كان غفلا من التجارب، مع ما يحمله من الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان " [١].

تدعم رسالة المطلق الألف، أصوات الفونيمات السابقة لها، وما تميزت به من صفات من مثل : الجهر والغنة في ميم (عزما)، والجهر والشدة في باء (أبى)، والشدة والاستعلاء والتفخيم الجزئي في قاف (يشقى)و(يشقى)، والجهر والتفخيم في راء (تعرى)، والاحتكاك في حاء(تضحى)، والجهر في لام (يبلى)، ومثلها في واو (غوى)، والجهر والشدة في دال (هدى) .

إضافة إلى أن الفاصلة تشكلت في أكثر مواضعها من مقطعين، أحدهما متوسط مغلق : عز/تشـ/تعـ/تضـ/يبـ، والآخر متوسط مفتوح : ما/قى/رى/حى/لى، بحيث كانت ثنائية المقطع، حيث أريد بهذا التشكيل المقطعي الذي يتنقل بين المغلق والمفتوح إبراز الحالة، ونقل المشاهد بما تنطوي عليه من الحسية والحركية، إمعانا في التحذير .

أما سياق الأعراف فيحكي قصة العداوة بين آدم وإبليس تفصلها الوظائف المعروضة التي تبدأ برفض إبليس السجود، وتنتهي بتأكيد العداوة مع الهبوط إلى الأرض" [٢] ، في خضم العرض الشامل في سورة الأعراف لموضوع العقيدة، وموقف البشر منها، عبر" رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة، والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها "[٣] .

---

[١] في ظلال القرآن : ١٦/٢٣٥٤ .

[٢] بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم : ٢٠ .

[٣] في ظلال القرآن : ٨/١٢٤٣.

فسياق الأعراف " عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته، والعوالم المحيطة به، والقدر الذي يصادفه، والمصير الذي ينتظره "[١]، ومن ثم فالسياق يعتمد نغمة تقريرية تدعو إلى استلهام العبرة، حيث تعرض المعانى من خلال إيقاع صوتى بطئ " إذ السياق في الأعراف يمضي هادئ الخطو، سهل الإيقاع، تقريري الأسلوب، وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد، خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة، حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحيانا في مواقف التعقيب، ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب"[٢] .

وقد اعتمدت "قصة آدم" فواصل تنتهي كلها بحرف النون[٣] إلا في آية واحدة" قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم " [آية:١٦] وهذه الآية أخرجت فواصل القصة من دائرة التماثل إلى دائرة التقارب ركونا إلى تقارب صوتي النون والميم ، وقد منح صوت النون الرنان ذو الصفة المجهورة الذلقة، وذو الغنة الآيات نظما بديعا، وأحدث مع الميم رنة رزينة جادة حاسمة تتلاءم مع المعنى في السياق .

والفواصل تنتهي جميعها بالمقطع المتوسط المغلق، وهذا المقطع بخصائصه وسماته الصوتية عمل على تحقيق نوع من التلوين الصوتي

---

(١) السابق : ٨/١٢٧٠.

(٢) السابق : ٨/١٢٤٥.

(٣) فونيم النون يعد من الفونيمات الشعورية لأنه يعبر عن دواخل الأشياء والصميمية أي أنه صوت ينبعث من الصميم للتعبير عن الألم العميق ، إذ إنه أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن الألم والخشوع ، ويوحي بالحركة من الخارج إلى الداخل وهو النفاذ في الأشياء" خصائص الحروف العربية : ١/١٦١.

والتآلف الموسيقى، وظف لخدمة المشاهد المعروضة، في سياق نقل أكثره عرضا بصيغة المنقول المباشر . وهو من المقاطع الحادة التي تستخدم للإنذار، أو لبيان الصفات والأحوال السيئة، أو الأمور التي لا تناسب مقدمتها نتائجها، أو في معرض مخالفات الأوامر الإلهية، حيث أضفى هذا المقطع من خلال إغلاقاته بالصوامت جوا من التركيز لما يسمعه المتلقي .

تضيف أصوات المد التي تسبق صوت الفاصلة أبعادا من الجهرية، بما لأصوات المد من أثر كبير في الوضوح السمعي، يزاد على قيمتها التطريبية، لما تتمتع به أصواتها من قوة إسماع عالية، وهو ما ناسب جو السورة الذي يثير انتباه المتلقي للمخالفة ومصائر المخالفين .

خاتمه البحث

قام البحث على دراسة وجوه الحجاج لمادة (الذوق) في الخطاب القرآني عبر مستويات : اللغة، والصورة، والإيقاع، حيث تم تحقيق عدد من النتائج في كل مستوى من المستويات الثلاثة، فيما يجمله البيان الآتي:

١. في المستوى اللغوي، حيث انطلقت الدراسة من اعتبار الحجاج مبحثا لغويا، تمت معالجة مادة(الذوق) داخل المساحه اللسانية، بما يمكن أن يحتويه هذا الإطار من منطق داخلي، حيث تمت عملية تفكيك النصوص، والكشف عن المعاني المخبوءة خلف الألفاظ الظاهرة.

٢. عبر مستوى التصوير الفني تم استخلاص وجوه حجاج مادة (الذوق)، من خلال دراسة البعد الدلالي (الاستبدالي) للإستعارة، وفق لون من العدول الجدولي، ودراسة فاعلية الصورة في السياق عبر لون من العدول النسقي، حيث ينتج البحث في سياق كل استعارة مجموعة من المفاتيح التي تتعلق بتفسير المفهوم الإستعاري وتأويله

٣. تمت مراجعة التأثيرات الصوتية لمادة (الذوق)، من خلال إجراء التحليل الصوتي للمادة عن طريق حصر الصيغ، إضافة إلى دراسة ظواهر إيقاعية عديدة مثل : الترديد، والتنغيم، والمقاطع ...

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية

١. الأدب الجاهلي، محمد النويهي، القاهرة، د. ت.
٢. الأساس في التفسير، سعيد حوي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، حلب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
٣. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣ م.
٤. أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٩٥م.
٥. الأسلوبية الصوتية، محمد صالح الضالع، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
٦. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .
٧. الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج، تحقيق د.عبد الله الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة .
٨. الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، محمد ويس أحمد، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥ م.
٩. الإنصاف فيما تضمنه الكشاف مع الاعتزال،على هامش الكشاف، ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري، دار الفكر، د.ب، د.ط، د.ت .
١٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
١١. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

١٢. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة
١٣. بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ط٢، ٢٠١٣ م.
١٤. بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ١٩٩٦ م.
١٥. البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، مصطفى السعدني، د.ت .
١٦. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، طبعة الكويت، ٢٠٠٨ م.
١٧. تأويل مشكل القرآن، أبو عبيدة بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث، ط٢، القاهرة .
١٨. التحليل الدلالي (إجراءاته ومناهجه)، كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
١٩. التصوير الساخر في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م.
٢٠. تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، عمر الملا حويش، بغداد، ١٩٧٢م.
٢١. التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمان، الأردن، ط٤، ٢٠٠٦ م.
٢٢. تفسير أبي السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لإمام القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
٢٣. تفسير البغوي " معالم التنزيل "، محمد أبو الحسين بن مسعود البغوي، حققه وأخرج أحاديثه، محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض .

٢٤. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.
٢٥. تفسير الشعراوي (خواطري حول القرآن الكريم)، محمد متولي الشعراوي، نشر أخبار اليوم، ١٩٩١ م.
٢٦. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨١ م.
٢٧. التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين السيد على، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٨م.
٢٨. حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٧م .
٢٩. الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه) سامية الدريدي ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١ م.
٣٠. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧ م.
٣١. الحوار في القرآن، قواعده – أساليبه – معطياته، محمد حسين فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٩٦م.
٣٢. الحوار وآدابه، وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد زمزمي، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، رمادي للنشر، الدمام، ١٩٩٤م.
٣٣. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
٣٤. خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

٣٥. الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
٣٦. دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم (مناهج تطبيقية في توظيف اللغة)، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١ .
٣٧. دراسات في النقد العربي، عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ط٣، ٢٠٠٠ م.
٣٨. دراسات قرآنية في جزء عم، محمود أحمد نحلة ، دار العلوم للطباعة و النشر، ١٩٨٩م .
٣٩. ذكر الفروق بين الحروف الخمسة، ابن السيد البطليوسي النحوي الأندلسي، تحقيق د. علي زوين، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الدينية، مطبعة العالي، بغداد، العراق .
٤٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
٤١. الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن السهيلي، تقديم طه سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر .
٤٢. شرح التلخيص، دراسة وتحقيق محمد مصطفى رمضان صوفية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، ط١، ١٩٨٩ م.
٤٣. شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين أبو البقاء بن يعيش الموصلي، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.
٤٤. شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد المرشدي، وبهامشه : حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، الشيخ أحمد الدمنهوري، دار الفكر، د.ط، د.ت، عن طبعة رستم مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩م .

٤٥. الصاحبي، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة، د.ط، د.ب،
٤٦. الصبح المنير في شعر أبي البصير، طبعة أوربا، ١٩٢٧م.
٤٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٤٨. الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.
٤٩. الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، محمد فريد عبد الله، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
٥٠. الصورة الاستعارية في الشعر العربي، وجدان الصائغ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
٥١. علم الأصوات وأصوات اللغة العربية، روعة محمد ناجي، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ٢٠١٢ م.
٥٢. علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م
٥٣. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨ م.
٥٤. الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥ م.
٥٥. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ابن قيم الجوزية، إشراف لجنة تحقيق التراث ، مكتبة الهلال، بيروت، د.ت .
٥٦. في سيمياء الشعر القديم، محمد مفتاح، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٩ م.
٥٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٠٣م.

٥٨. في النحو العربي، قواعد وتطبيق، مهدي المخزومي، ط١، القاهرة، ١٩٦٦م.
٥٩. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٣م.
٦٠. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م.
٦١. قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، دار سعاد الصباح، ط٤، ١٩٩٣م.
٦٢. القصص القرآني في منطوقة ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٥م.
٦٣. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي)، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ١٩٩٥ م.
٦٤. كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، تعليق وفهرسة إغناطيوس كراتشكوفسكى، دار المسيرة، ١٩٨٢م .
٦٥. كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م.
٦٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.
٦٧. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت، ٢٠١٠م.
٦٨. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨م .
٦٩. لغة القرآن الكريم، عبد الجليل عبد عيسى على الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، ط١، عمان ١٩٨٣ م.

٧٠. اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مطبعة العمدة للطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٦ م،
٧١. اللغة والخطاب، عمر أوكان، إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠١م.
٧٢. متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام، عبد الجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، الزقازيق، ط١ .
٧٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٠م.
٧٤. المجاز والحجاج في درس الفلسفة والصورة، شوقي مصطفى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥ م.
٧٥. مجمل اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
٧٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم . طبعة جديدة منقحة ومرتبة
٧٧. مختصر السعد على تلخيص المفتاح، (ضمن شروح التلخيص)، سعد الدين التفتازاني، بيروت، دار الكتب العلمية .
٧٨. معجم مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، الكويت، ١٩٨٢ م.
٧٩. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
٨٠. المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)، محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.
٨١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٢، ١٩٩٣م.
٨٢. المفصل في علم العربية، الزمخشري، مطبعة التقدم، القاهرة، .
٨٣. الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قبارة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

٨٤. من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٣م.
٨٥. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة (د- ن)
٨٦. من وظائف الصوت اللغوي، أحمد كشك، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
٨٧. مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٩٠ م.
٨٨. المنطق الفطري في القرآن الكريم، محمود يعقوبي، دار العرب، الجزائر، ط١، ٢٠١٢م.
٨٩. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن المنير الإسكندري، دار الفكر، د.ب، د.ط، د.ت .
٩٠. موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.
٩١. موسيقى الشعر العربي (مشروع دراسة علمية)، شكري محمد عياد، أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع .
٩٢. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان ، ط١، ١٩٩٧م.
٩٣. نحو نظرية لسانية إعرابية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية، مازن الوعر، دار طلاسي للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.
٩٤. النظرية الحجاجية، محمد طروسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضا.
٩٥. نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط١، ١٩٨٣م.

٩٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .
٩٧. النقد الأدبي (أصوله-مناهجه)، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ٢٠٠٣ م.
٩٨. هكذا تكلم النص، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

ثانيا : المراجع المترجمة

١. الاستعارة التي نحيا بها، جورج لايكوف و مارك جونسن، ترجمة عبد المجيد جحفة ، دار توبقال للنشر، ط٢، ٢٠٠٩م.
٢. بناء لغة الشعر، جون كوهن، ترجمة أحمد درويش، دار المعارف، ط١، ١٩٩٣م.
٣. التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، أخرجه و صححه و علق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.
٤. السيميائية و فلسفة اللغة، امبرتو إيكو، ترجمة أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
٥. في الشعر والشعراء، ت.س. إليوت، ترجمة محمد جديد، دار كنعان للدراسات و النشر، ط١، ١٩٩١ م.
٦. مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز أ.أ، ترجمة مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة، ١٩٦٣م.

ثالثا : الرسائل الجامعية

١. بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، محمد مشرف خضر، (أطروحة للماجستير) جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ٢٠٠١ م.
٢. تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، دراسة مقارنة في النظرية والمنهج، مها محمود إبراهيم العتوم (أطروحة للدكتوراه)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م.
٣. التخريج الصوتي للبنية الإيقاعية : شعر أبي القاسم الشابي، حقلا تطبيقيا، (أطروحة للماجستير)، عبد القادر رحماني، جامعة حسيبة بوعلي بالشلف /الجزائر، العام الجامعي ٢٠٠٧/٢٠٠٨ م.
٤. جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف (أطروحة للماجستير) في الآداب (الدراسات الأدبية)، دار المتبي، دمشق، سورية، ط٢، ١٩٩٩ م.
٥. الحوار في مشاهد القيامة في القرآن الكريم (دراسة دلالية بيانية)، هالا سعيد محمد مقبل (أطروحة للماجستير) كلية الآداب والعلوم (قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، عمان، الأردن، ٢٠١٠/٢٠١١م.
٦. الصورة الاستعارية وجمالياتها في القرآن الكريم، سيدي محمد طرشي، (أطروحة للماجستير)، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، العام الجامعي ٢٠٠٥/٢٠٠٦ .
٧. العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي(دراسة أسلوبية)، بثينة محمد سيد أحمد (أطروحة للدكتوراه)، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٥ م.
٨. مستويات السرد الوصفي في القرآن الكريم، طلال خليفة سلمان، (أطروحة للدكتوراه)، كلية الآداب /جامعة بغداد، ٢٠٠٩ م.

رابعا : الأبحاث العلمية والمقالات

١. أثر العامل النفسي في تغير دلالات الألفاظ، فرهاد عزيز محيي الدين، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد ٨، عدد (١)، ٢٠١٣م .
٢. الإشارة الصوتية في النص، مدخل إلى المفهوم والأدوات والقيمة، د. منير تيسير شنطاوي، الجامعة الهاشمية، الزرقا، الأردن، مجلة العلوم العربية، عدد ٢٣.
٣. بين تداولية الأفعال الكلامية (مقاربة مفاهيمية)، حمدي منصور جودي، بحث منشور فى حوليات المخبر، جامعة محمد خيضر – بسكرة – العدد الأول، ديسمبر ٢٠١٣ .
٤. تراسل الحواس في ضوء القرآن الكريم – وظائف وجماليات –، حميد عباس زاده ومحمد خاقاني، أصفهان، بحث منشور في مجلة دراسات في اللغة العربية، العدد ٢١ .
٥. الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو، الراضى رشيد، عالم الفكر، عدد (١)، مجلد ٣٤، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٥ .
٦. الخطاب القرآني في ضوء العلوم اللغوية، إسماعيل مغمولي، بحث منشور في مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٣٩٣، كانون ٢٠٠٤م.
٧. قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن(مقال)، د.نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، عدد ابريل ١٩٨٤م.
٨. مساهمة في تحديد الجملة الاسمية، عبد القادر المهيري، حوليات الجامعة التونسية، عدد٥، ١٩٦٨م .
٩. مقال في الإنسان (دراسة قرآنية) د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف
١٠. من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد السيد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م٩، ع٣٦ ، ١٩٨٩ م.